(٣)

الإمبراطورية تكشف عن وَجْهها

كلمة «أبوكاليپس ـ apocalypse» (سفر الرؤيا) مشتقة من الكلمة الإغريقية apocalypteo التى تعنى حرفيًا «بدون حجاب[1] ـ without veil or unveiling»، فالكتّاب الرؤيويون للعهد القديم سَعَوْا لرؤية ما تحت سطح الأحداث المعاصرة لهم ليتبيَّنوا معناها الحقيقى. كان غرضهم هو تبيّن يد الله القُدسية أو الخفية وكشف دورها فى الأحداث التى تمثَّلت فى غزو الإمبراطوريات الأجنبية لشعب إسرائيل بعد القرن الثامن قبل الميلاد[2]. لم تكن الرؤى الكتابية مهتمة كثيرا بنهاية العالم بقدر ما كانت مرتبطة بالتاريخ الحاضر (المعاصر لمن رأوها) خاصة تاريخ الظُّلم الإمبراطورى، وأمل شعب إسرائيل فى حكم الله الموعود. يقول سى. كيه. بارِّت: «الأسرار التى تتعامل معها أسفار الرؤى ليست هى ـ ببساطة ـ أسرار المستقبل ـ أى ليست هى أسرار العصر الذى سيأتى ـ إنها تحوى أسرار الوضع الحالى (الحالى بالنسبة لأصحاب الرؤى) لـ «العالم المقدّس (السماوى) ـ heavenly world». حقيقة أنّ هذين السرّين لكلّ من السماء والمستقبل مرتبطان ارتباطا وثيقا طالما أنَّه فى الرؤى، يجرى الإعلان عن المستقبل ذى المغزى فى هذا العالم، من العالم السماوى، معرفة ما هو الآن فى السماء؛ يعنى ـ بالتبعية ـ معرفة ماذا سيحدث على الأرض[3]».

لقد كان الغرض الأول لمؤلفى أسفار الرؤى فى العهد القديم هو شد أزر الإسرائيليين خلال فترة الاحتلال والنفى على أيدى الإمبراطوريات: الأشورية والبابلية والفارسيّة. لقد سعى أصحاب هذه الرؤى لإظهار أن خطّة الله إنما كانت تهدف فى النهاية إلى إزاحة هذه الأمم التى هزمت إسرائيل، وتأسيس حكم يهوه (الله) المباشر على الأرض من القدس أو جبل صهيون. وفى الوقت نفسه على الإسرائيليين أن يبقوا مؤمنين بعبادتهم ليهوه بوصفه الإله الحق؛ لأنه سرعان ما يكشف عن ذاته كحاكم للأمم.

ويُعتبر سفر دانيال هو الشّاهد التقليدى على هذا الأسلوب الرؤيوى. إنه يقُص حكاية ثلاثة إسرائيليين واجهوا مَلك بابل العظيم «نبوخذ نصر» وقاوموا عبادة الملك،

تلك العبادة المفروضة على كل الشعب بمن فيه اليهود المنفيِّين. وعندما عوقب هؤلاء اليهود الثلاثة بإلقائهم فى حُفَر فيها نار، على إيمانهم بعبادة يهوه وليس الملك، خرجوا من النيران دون أن يصيبهم ضُر، فأثاروا إعجاب الملك وولاهم مناصب عالية فى بلاطه. ولا بد أن قارئ هذه القصة من اليهود والمغلوبين على أمرهم أدركَ مغزاها الواضح. فقد يُجبرون على العبودية وعلى النفى بعيدا عن بلادهم بمئات الأميال، فَهُم وإن تحطّم هيكلهم فى القدس ونُهبت مدنهم إلا أنهم ـ مهما كانت طلبات قامعيهم الظالمة ـ عليهم أن يقاوموا وعليهم أن يظلوا مخلصين ليهوه الذى سيطيح ـ يوما ما ـ بالأباطرة والإمبراطوريات التى سبق أن هزمت إسرائيل. ستنهار دعاوى هؤلاء الأباطرة وتلك الإمبراطوريات ليكون يهوه هو رب كل الأمم، وسيأتى الناس جميعا لعبادته فى القُدس المستعادة. والخطاب الرؤيوى فى الكتاب المقدس هو ترجمة لفترة ما بعد النفى حيث معاداة الإمبراطورية ومعاداة العروش، وهذا هو المسار العام الصحيح فى العهد القديم. إن هذه الرؤى تتطلَّع إلى زمن يعود فيه ياهو ليحكم من جديد ـ حكما مباشرا ـ «شعب الله ـ People of God» دون وساطة من عروش بشرية أو إمبراطوريات دنيوية. وهذه الرؤى تذكّر ـ أيضًا ـ الإسرائيليين بأن ياهو لا يزال إلى جانب شعبه المختار، حتى وإن أصبحوا عبيدًا وخدمًا لقوى أجنبية، كما كان حالهم فى وقت من الأوقات ـ فى أرض مصر ـ خدمًا وعبيدًا لقوى أجنبية[٤].

وقد استخدم يوحنا (من پطمس Patmos) الكاتب المسيحى لسفر الرؤيا مسحة رؤيوية يهودية فى تأليفه لنصّه الرؤيوى المسيحى (سفر الرؤيا). وكان غرضه هو تشجيع المسيحيين وإلهامهم أثناء تعرضهم للاضطهاد على أيدى السلطات الرومانية فى أواخر القرن الميلادى الأول، ليظلوا على إيمانهم بالمسيح. لكن بينما نجده يستخدم الرمزية على النحو الذى استخدمت فيه فى العَهد القديم، فإن سفر الرؤيا أيضًا عمل إبداعى كبير يقدم لنا تأثير الفهم المسيحى على التاريخ البشرى وتاريخ الكون بطريقة تخيلية رؤيوية[٥]. فكما يشير كريستوفر رولاند، فإن الإغراء الخيالى لسفر الرؤيا نشأ ـ على وجه التحديد ـ «من تحدى الوضع القائم (وقتئذ) والتطلّع لعالم أفضل، بشكل يربط كل هذا جميعا ربطا عاطفيا بالاهتمام بالمسئوليات الراهنة». لقد أعاد الكاتب

(يوحنا) فهم العالم فى ضوء قيامة المسيح، بوصفه عالما جديدا ينتصر فيه الخير على الشر ليكون الله والبشر معًا على الأرض:

«وعلى هذا، فسفر الرؤيا يُظهر لنا أنَّ العالم لم يَعُد مقبولا كما هو (بوضعه الحالى) ذلك أنَّ الأمور تكشَّفت بلا مواربة واتضح تواطؤ العالم - بشكل متتابع - مع قوى الشر. فالحكاية كلها تمثل نضالا لتحقيق الكمال، ولا يكون هذا إلا بإزالة الحاجز بين السماء والأرض أى بين الله والبشر عندما يسكن الله هيكله، [طبقًا للعهد القديم] بين البشر، رجالا ونساء»[٦].

المعنى الحقيقى لسفر لرؤيا هو أن الإمبراطورية الرومانية التى أطلق عليها السفر أسماء مختلفة «الوحش»، «التنين»، «زانية بابل»، والإمبراطور الرومانى «عدو المسيح» (الأنتيكرست) يهزمون بالفعل. والإمبراطورية الرومانية قد تظهر من جديد لتسود، لكن لن تطول سيادتها، فستأتى كل الأمم حتى «زانية بابل» لتعترف بـ «ربوبية المسيح - Lordship of Christ». فسفر الرؤيا - بعبارة أخرى - دعوة قوية ضد الإمبراطورية، فلغته الرمزية وإشاراته المُشَفرَة، تُشير للمسيحيين الأوائل إلى حقيقة التاريخ التى تعنى أن كل الإمبراطوريات - بما فى ذلك إمبراطورية روما - ستسقط فى خاتمة المطاف لتخضع للحكم المباشر لله من خلال مشاركة القدّيسين».

***

إضفاء القدسيّة
على الإمبراطورية الأمريكية

إنّه لتشويه مأسوى لرؤى الكتاب المقدس أو لأسفار الرؤيا فيه، أن تَستَغل أمريكا فكرة الألفية لأكثر من قرنين كأيديولوچيا مُقدّسة، لتخفى بها الاتجاهات التوسعية للنخبة الحاكمة فيها، تلك الاتجاهات التى تنم بوضوح عن الرغبة فى تكوين إمبراطورية. لقد استخدمت هذه النخبة فكرة الألفية لتُخفى تأسيسها لإمبراطورية يكون فيها الكثيرون فى خدمة القوّة، أما الثروة فتكون للقلّة وبدلا من كشف الهدف فنحن هنا نغطّى عليه (نحجبه) وتصبح أيديولوچيا الرؤيا النبوئية أداة تغطى حقيقة العدوان الإمبراطورى، داخل أمريكا وخارجها[٧].

لقد كانت أيديولوچيا الحجب هذه التى تُضْفى الغموض على القوّة الأمريكية، أيديولوچيا فعّالة جدا، حتى إنَّ الكثيرين من الأمريكيين ليس لديهم فكرة عن الطبيعة الإمپريالية للسياسة الخارجية للولايات المتحدة الآن، أو فى المائتى عام الأخيرة، فقد حجبت عنهم وسائل الإعلام هذه الحقيقة، فوسائل الإعلام هذه كانت فى الغالب الأعم مُستعبدة تماما لنخبة المؤسسات التى تحكم الإمبراطورية. لكن الچنرال السابق أندرو باسيڤيتش بالجيش الأمريكى ذكر أنه «خلال القرن العشرين ستلعب الولايات المتحدة دورا لا يمكن فهمه إلاّ بوصفه شكلاً مختلفا من أشكال الإمبراطورية»[٨]، وبانتهاء الحرب الباردة أصبح الحديث عن الإمبراطورية الأمريكية جزءا من المناقشات اليومية فى أمريكا عن سياستها الخارجية[٩]. فكما يقول المؤرخ «آرثر شليسنجر ـ Schlesinger» «من ذا الذى يمكنه أن يشك فى وجود إمبراطورية أمريكية؟ إنها إمبراطورية عامة informal (غير معلنة أو غير رسميَّة). حقيقة إنها ليست دولة استعمارية من ناحية شكل الحكومة، لكنها مزوّدة وبكفاءة عالية بكل الأدوات الاستعمارية: جيوش وسفن وطائرات وقواعد وحكام إداريون واسعو الصلاحيات وعملاء.. كل هذا منتشر فى الكوكب سيئ الحظ»[١٠]. فقد كان الهدف الأساسى للإمبراطورية الأمريكية هو «فتح العالم للمشروع الأمريكى؛ لأنه بدون عالم مفتوح لا يمكن أن يكون الاقتصاد السياسى فى النظام الأمريكى فاعلا ومؤثرا، خاصة وأن هذا النظام قائم على منطق التوسع غير الظاهر»[١١].

فالنظرة القاضية بأن أمريكا تحقق أهدافها بشكل أفضل فى عالم شكَّلته القوّة العسكرية الأمريكية، وأتبعته للاستثمار الاقتصادى الأمريكى ـ هذه النظرة أصبحت محورية أكثر من أىّ وقت مضى فى السياسة الخارجية الأمريكية. فبعد فشل أمريكا المدوِّى فى جنوب شرق آسيا فى القيام بدور «الأمّة المخلِّصة ـ redeemer nation» ـ دخلت واقعية جديدة فى مداولات السياسة الخارجية الأمريكية فى عقود تالية. فالتحليلات تذهب إلى أنَّ أمريكا قد انجرفت إلى الحرب الڤيتنامية فى الأساس بسبب مصالحها فى وقف الشيوعية، أكثر من انجرافها بسبب تنمية مصالحها الاقتصادية. فقد كانت ڤيتنام وكمبوديا ولاوس فى الأساس جزءا من الفرانكوفون (مناطق النفوذ الفرنسى) ولم يكن هناك إلا عدد قليل من الشركات الأمريكية تعمل فى المنطقة، وأكثر من هذا لم يكن هناك بترول. وفى الخمسة عشر عاما التى شهدت التدخل الأمريكى

فى ڤيتنام وكمبوديا ولاوس سقط مليون ما بين قتيل وجريح، ومات بعد ذلك أكثر من مليون آخرون فى أعمال الإبادة الجماعية المرعبة (پول پوت)، نتيجة القصف المرعب وتدمير كمبوديا بناء على سياسة تبناها نيكسون وكيسنجر. وكان الخطأ الذى ارتُكب فى جنوب شرق آسيا هو - على وفق الواقعية الأمريكية الجديدة - أنَّ الولايات المتحدة تدخَّلت فى ثلاث دول فى الوقت الذى لم يكن لديها فيه مصالح اقتصادية واضحة. وقد لخَّص كاسپر وينبرجر هذه الواقعية الجديدة بأنها «الاعتقاد فى القوة الكاسحة التى توظَّف بشكل حاسم لخدمة المصالح الأمريكية»[١٢]، **وقد عبّرت مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية فى عهد الرئيس كلينتون عن الرأى نفسه عندما شرحت الهجوم على العراق بصواريخ كروز «إن كان علينا أن نستخدم القوّة فذلك لأننا أمريكا. إننا الأمّة التى لا يمكن الاستغناء عنها. إننا «نقف شامخين طوالاً - we stand tall»، إننا نرى أبعد عبر الزمان»**[١٣].

وقد عمل پول ولفوفيتز - أحد الشخصيات المهمة جدا فى إدارة جورج دبليو. بوش - فى البنتاجون فى حكومة جورج بوش الأب. إنه يفصِّل فى ذلك الوقت مستخدمًا مصطلحات أكثر انفتاحا بكثير من أى استراتيچى عسكرى سابق، سياسة المصالح الذاتية الإمپريالية، والتى جرى تنحيتها سابقًا بالتظاهر بأن أمريكا أمّة مخلِّصة تعمل بتجرّد كامل دون مراعاة مصالحها على المسرح العالمى، أى أنها تعمل لصالح البشرية. لقد كتب ولفوفيتز «وثيقة خطة الدفاع - Defence planning» - وهى وثيقة خلافيّة مثيرة للجدل - فى بداية هزيمة العراق على يد القوات العسكرية لأمريكا وحلفائها فى حرب الخليج الأولى، **يرى فيها ضرورة أن توجَّه السياسة الخارجية الأمريكية - مستقبلاً - نحو توديع (أى إزاحة) كل المنافسين المحتملين لأمريكا وإبعادهم عن المسرح العالمى. لا بد أن تفرض أمريكا نفسها كقوة عالمية وحيدة قادرة على الدفاع عن مصالح الأمم المتقدمة صناعيًا، ولا بد أن تكرّس نفسها عسكريا وديپلوماسيا «لإعاقة أى منافسين مُحتملين كى لا يطمحوا للقيام بأىّ دور أكبر على الصعيدين الإقليمى والعالمى»**[١٤].

وقد رفضت - فى ذلك الوقت - إدارة بوش الأب اتجاه ولفوفيتز، لكن بعد ذلك فى تسعينيات القرن العشرين، وجد عدد من الشخصيات المهمة فى إدارة جورج بوش

الابن أنفسهم يأخذون باتجاه (عقيدة) ولفوفيتز، ويفصّلونه بمن فيهم ديك تشيني، ودونالد رامسفيلد، وريتشارد بيرل. **لقد قرروا تحت شعار مشروع «القرن أمريكى جديد ـ New American Century» أن هدفهم هو «تدعيم قيادة أمريكا للعالم» وكذلك «تشكيل قرن جديد لصالح القيم الأمريكية والمصالح الأمريكية»**[١٥]. وفى العام الأول من القرن الجديد أصدرت الـ PNAC وثيقة بعنوان «إعادة بناء الدفاعات الأمريكية ـ Rebuilding America's Defenses» يبدو ما توصلت إليه وكأنه عرض دقيق للارتباطات العسكرية، وللسياسة الخارجية لإدارة جورج دبليو بوش. لقد أعلنوا أن الرسالة الأولى المحورية للقوات المسلحة الأمريكية هى الدفاع عن «الوطن الأمريكى ـ American homeland»، وبعد ١١ سبتمبر أسست إدارة بوش «قوات الدفاع عن الوطن ـ Homeland Defence Force». والرسالة المحورية الثانية هى «خوض حروب تكتيكية كبرى متعددة فى وقت واحد، وكسبها بحسم»، ومنذ ١١ سبتمبر خاضت الولايات المتحدة حربين كبيرتين فى مسارح مختلفة؛ فى أفغانستان والعراق، وكانت تقدم فى الوقت نفسه «عونًا عسكريًا ـ military assistance» فى الفيليبين وكولومبيا وهايتى[١٦]. **وأبدت الوثيقة أنه رغم نهاية الحرب الباردة كانت هناك حاجة طارئة لزيادة نفقات الدفاع، إذا كان على أمريكا أن تُحافظ على مكانتها المهيمنة فى النظام العالمى، وهذا قريب مما وَعَد به الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش فى خطاب توليته، وَوَضَعه موضع التنفيذ بعد ذلك، وأوصى التقرير بتطوير ونشر «وسائل الدفاع الصاروخية على مستوى العالم» التى كانت ـ فى الأساس ـ إحياء واستلهامًا للنظام الدفاعى الذى أخذ به ريجان والمعروف بـ «حرب النجوم». ومرّة أخرى وجدنا أن هذا مبادرة لإدارة الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش**[١٧]. **وأوصت الوثيقة أيضًا أن تكون السياسات الأمريكية أكثر فعالية بكثير إزاء تكاثر أسلحة الدمار الشامل، وحبَّذ التدخل العسكرى فى العراق وإيران وسوريا وكوريا الشمالية**[١٨]. **مرّة أخرى نجد أنَّ قائمة (miscreant nations)، أى الدول الكافرة أو اللئيمة، هى نفسها دول «محور الشر» التى حدّدها بوش بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.**

هذه المبادرات الدفاعية الجديدة قد صُمّمت للحفاظ على السلام الأمريكى ليغمر العالم «global pax Americana» الذى يمكن أن يقدّم هيكلاً جيوپوليتيكيا للنمو

الاقتصادى الأمريكى على نطاق واسع، ولنشر المبادئ الأمريكية ـ الحرية والديمقراطية. وهذا الهيكل الجيوبوليتيكى ـ فيما يُقال ـ مهدّد بأحداث شرق آسيا ووسطها بسبب نهوض الصين، وكذلك بأحداث الشرق الأوسط. فلا بد أن يُعاد نشر القوات الأمريكية انطلاقًا من قواعدها فى فترة الحرب الباردة فى أوروبا الشمالية وشمال شرق آسيا إلى «الخليج العربى ـ Persian Gulf» وجنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى، مُمركزة قواعد أمريكية دائمة فى المناطق التى يكون فيها «السلام الأمريكى ـ Pax Americana» أكثر عُرضة للتهديد[١٩]. مرّة أخرى نجد الآن أنه من المثير واللافت للنظر مدى ارتباط هذا المخطط بما حدث بالفعل منذ سنة ٢٠٠١م. فقوات الولايات المتحدة تنتشر الآن بقوة ملحوظة فى أفغانستان وكازاخستان والعراق والكويت، وكذلك فى المملكة العربية السعودية. ولا يستثنى من هذه الاستراتيجية سوى جنوب شرق آسيا، رغم أن الولايات المتحدة أرسلت قوّة عسكرية إلى الفيليبين بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ مباشرة. لقد تحركت إدارة بوش بسرعة بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لترجمة الاستراتيجية الآنف ذكرها (استراتيجية الـ PNAC) إلى إجراءات تنفيذية، بنشرها «استراتيجية الأمن القومى ـ National Security Strategy». لقد أعلنت الوثيقة أن أمريكا فى ظل حُكم بوش ستستخدم قوّتها التى لا نظير لها ونفوذها فى كل منطقة فى العالم للدفع بـ «العالمية الأمريكية الواضحة ـ American internationalism، التى تعكس وحدة قيمنا ومصالحنا الوطنية[٢٠]. وستكون الوسائل المستخدمة لتحقيق هذا هى زيادة الميزانية زيادة كبيرة مما سيمكّن أمريكا من توجيه ضربات إجهاضية لأى تهديد محتمل، وأى دولة «شرّيرة ـ rogue» وأى أمّة تُؤوى الإرهابيين وأى أمة تهدد بتطوير أسلحة الدمار الشامل. وعلى هذا فال «PNAC» قد وضعت مسبَّقا أسس كلّ من الاستراتيجية العسكريّة العدوانية «أحادية الجانب ـ unitateral» والقائمة على الضربات الإجهاضية، تلك الاستراتيجية التى أخذت بها إدارة بوش بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وكذلك وضعت أسس سَعْى إدارة بوش سعيًا حثيثا لفرض سيطرتها الإمبريالية على الاقتصاد العالمى وفرض هيمنتها العسكرية.

ورغم هذه العقيدة الجديدة القائمة على الضربات المسبَّقة وعلى «الحرب على الإرهاب» فإنَّ سعى إدارة بوش للسيطرة العالمية ليس فى حدّ ذاته جديدا، و «وليم

چيفرسون كلينتون» سعى بنشاط ـ قبل بوش الابن ـ إلى توجيه العَوْلمة بطريقة تجعل أمريكا فى مقعد القيادة لتوجيه اقتصاد العالم، مستغلاً كل المستجدات الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية لتحقيق هذا الغرض[٢١]. فقد وضع كلينتون أسس الجهود الساعية للسيطرة على الاقتصاد «العالمى ـ global» الجديد الذى يتجاوز حدود الدول بشكل متزايد، واستغلال ثورة المعلومات لدفعه للأمام، وكان هذا هدفًا أساسيًا لإدارته (إدارة كلينتون). لقد كان المشروعان الاقتصاديان الكبيران فى فترة حكم كلينتون هما: إنشاء«منطقة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية ـ North American Free Trade Area» و«منظمة التجارة العالمية ـ World Trade Organisation» ـ لقد كان هذان المشروعان يشغلان مكانًا مركزيا فى استراتيچيته. ولم يختلف كلينتون مع المتحدّث الجمهورى باسم الكونجرس نوت جينجرتش الذى قال: إنه بالسيطرة على مرحلة العولمة الجديدة والهيمنة عليها ستصبح أمريكا «لا تُبارى فى ثروتها وقوّتها والفرص المتاحة لها»[٢٢]. ستكون أمريكا قادرة على السيطرة على العولمة وتطويعها على وفق ما تتخيله وعلى وفق مصالحها، ليس فقط من خلال براعتها فى علوم الحاسب الآلى والأقمار الصناعية و«السوفت وير ـ software»، تلك الوسائل التى تسيطر على ثورة المعلومات، وإنما أيضًا من خلال الهيمنة الكلية الممتدة عبر العالم كله للعلامات التجارية الأمريكية، والأطعمة الأمريكية، ووسائل الترفيه الأمريكية، والقيم الاقتصادية والسياسية الأمريكية[٢٣].

وبوش والبيت الأبيض فى عهده ـ مثلهم مثل كلينتون ـ يرون العوْلمة فتحًا للحدود للتجارة والاستثمار الأمريكيين، وهما بدورهما وسيلة لنشر القيم الأمريكية، خاصة الفهم الأمريكى للحرية «فتوقّع الحرية لا بد أن تغذّيه السوق الحرّة، وتنشرها التجارة الحرة، ويتم حملها عبر الحدود عن طريق الإنترنت»[٢٤]. والفرق الحقيقى بين بوش ومن سبقوه ليس فى حق أمريكا فى السيطرة على العالم من خلال العولمة وليس فى ضرورة ذلك، وإنما فى المدى الذى وصل إليه بوش خاصة بعد ١١ سپتمبر، فى حربه الشاملة ضد أى مصدر محتمل للمعارضة، بما فى ذلك المنشقّين داخل الولايات المتحدة نفسها، وكذلك الإرهابيين فى الخارج والدول المتخاذلة. فكما يؤكد جور ڤيدال وناعوم تشومسكى دون ملل، فإن كارتر وريجان وبوش الأب وكلينتون، كلهم

قد استخدموا القوة العسكرية الأمريكية لقصف دول أخرى مستقلة، وغزوها بما فى ذلك جرينادا ونيكاراجوا وبنما وليبيا والصومال والسودان، دون الرجوع للأمم المتحدة[٢٥]. لكن ١١ سبتمبر كان هو الحدث الذى مكّن إدارة بوش بشكل فريد من تحويل الحرب من أجل أسواق تسيطر عليها المؤسسات التجارية الأمريكية إلى «حرب صليبية ـ military crusade». لقد أعطت أحداث ١١ سبتمبر البيت الأبيض فى عهد بوش الفرصة نفسها للسيطرة الكاملة، التى منحها اليابانيون والنازيون والروس للرؤساء الأمريكيين قبل بوش. وكما يقول باسقتش فإن الحرب الجديدة باسم «الحرية وضد الشر» مماثلة للنازية، تعطى مبرراً شرعيًا لاستخدام القوة الأمريكية. وأكثر من هذا فحرب بوش ضد الإرهاب ومن أجل الحرية هى فى صميمها حرب باسم المشروع الأمريكى لخلق عالم مفتوح موحد[٢٦].

منذ أكثر من مائتى سنة، فى فجر التنوير الأوروبى الذى اعتقد الأمريكيون أنهم هم ورثته، كتب عما نويل كانط مقالاً بعنوان «سلام دائم»[٢٧]. لقد كان إيمان كانط بأن نور العقل واستبدال الدين بقواعد دستورية قائمة على أسس عقلية، كل هذا سينهى الحرب ويؤدى فى النهاية إلى عالم كامل (مثالى) يصبح فردوسًا أرضيا. **ومما يدعو للسخرية ـ إذن ـ أن نجد الرئيس الأمريكى المسيحى رئيس الجمهورية العلمانية يستخدم لغة الحرب الصليبية ـ وهى لغة رؤيوية دينية ـ وعبارات على شاكلة الرعاية المقدسة، ومحور الخير ومحور الشر؛ ليواصل الضربات العسكرية الاستباقية دون حدود ضد العدو الإسلامى، وذلك دفاعًا عن الأفكار التنويرية عن الحرية. وأثناء «الحرب على الإرهاب» نجد بوش يعلن مرارا وتكرارًا «أن أمريكا ستقود العالم نحو السلام»[٢٨]، لكن إذا كان السلام يعنى غياب الصراع ومسالمة الأعداء، فإن العمليات الأمريكية فى «الحرب على الإرهاب» تبدو لا نتيجة لها إلا المزيد من الكراهية ضد أمريكا وحلفائها.**

***

الجذور الفكرية للإمبريالية الجديدة

لم تتطوّر الواقعية الاستعمارية الجديدة لـ «PNAC» والنزوع العسكرى المصاحب

لهـا والذى أخـذت به إدارة بوش، من فـراغ فكرى. وإنما كـان لهـا جـذورها الفكرية العميقة. إنهـا تعكس التحـوّل الكبير فى الفكر السياسى والاجتمـاعى الأمريكى فى الأربعين سنة الأخـيـرة، والذى يمكن أن نلمـحـه بادئ ذى بدء فى أفكار الفـيلسـوف «فريدريك هايك ـ Hayek» والمنظّر السياسى «ليو شتراوس ـ Strauss» والاقتصادى «ملتـون چ. فريدمـان ـ Friedman». فيكاد يكون كل برنامج المحافظين الجـدد الذين صاغوا أنفسهم بأنفسهم، والذين يسيِّرون إدارة چورچ دبليو. بوش مُستقى من أفكار هايك، وشتراوس وفريدمان، وعدد من أعلام إدارة بوش بمن فيهم چون أشكروفت، وپول ولفوفيتزس تَتَلْمذوا على يد شتراوس فى شيكاجو.

والفكرة المحورية فى النقد الذى وجّهه فريدريك هايك للاشتراكية فى بحثه «الطريق إلى العبـودية ـ Road to Serfdom» هى أن جُـهـد الدولة الموجَّه إلى تحسين المجـتـمع أخلاقيّا تؤدى إلى الظلم والطغيان[٢٩]. لقد كـان هايك يكتب ما كتب أثناء الحرب العالمية الثانية، ونماذج على شاكلة هيتلر وستالين اللذين كانا لا يزالان يبثان الشر بين ملايين البشر، فى ظل هذه الظروف دلَّل هايك على أن الدولةَ عنيفةٌ بالضرورة وبشكل أساسى وأنها ـ فى الأصل ـ تميل للإجبار والإكراه وعلى هذا فأفضل ما يمكن عمله هو التقليل من تأثيرها والتقليل من سلطانها القانونى. لقد اقتبس هايك مقولة فريدريك هولندرلين «ما تفعله الدولة دائما هو أن تشيِّد جحيمًا على الأرض، يحاول الإنسان أن يجعلهُ لَهُ جنة»، ليقول إن عمل الدولة هو تحسين الظروف البشرية بمعنى أنها تساعد الفرد فى فقره، أو تمنع الشركات من الإضرار بالبيئة، وهى بهذا أداة قسرية (إكراهيَّة) ـ بشكل لا مفر منه ـ تقيّد حرية الفرد، وبالتالى فهى ـ أى الدولة ـ فاسقة «لا أخلاقية ـ immoral»[٣٠].

وأضاف ليو شتراوس بُعدا آخر لمنظور هايك عندما وضَّح فى محاضراته وكتاباته فى جامعة شيكاجو فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين، أنه كان خطأ أساسيا أن ننظر بمنظور أخلاقى للنتائج السياسية وفعاليَّات «الدولة الوطنية الحديثة ـ modern nation state». فالحقبة الأولى للديمقراطية ممثلة فى الدولة الديمقراطية الحديثة تميَّزت بالميل إلى مركزة السلطة واحتكارها، وقمع من يقاومون مركزيّة السلطة من خلال احتكار

العنف، ذلك أن الدولة هى التى تمتلك الشرطة والجيش - وهى تختلف بهذا عن التكوينات السياسية التى وُجدت فى« الدولة - المدن فى اليونان القديمة - Greak City States». وعلى هذا فقد كان المجتمع الصالح فيما يرى شتراوس ليس نتاج سلطة الدولة؛ لأنه من المحال أن نُجبر الناس على أن يكونوا صالحين. وليس من الممكن أيضًا إيجاد مجتمع أو نظام اجتماعى لتحسين يؤدِّى إلى الخير، إلا إذا أصبح الناس أنفسهم صالحين. فالأفراد ذوو الفضل والصلاح - وليس الدولة المنظَّمة - هم المتربعون فى قلب المجتمع الصالح[٣١]. فالأفراد الصالحون يمكنهم أن يُقرروا أن يعملوا معا لإيجاد مجتمعات منضبطة أخلاقيا. فجهود الدولة لهندسة مجتمع أفضل من خلال إعادة توزيع الثروة أو تقديم خدمات لتحسين الأحوال العامة، هى - على هذا - جهود ضلَّت السبيل بشكل مزدوج. فالدولة الحديثة واسعة جدا وقَسْرية جدا بدرجة لا تجعلها قادرة على هندسة مجتمع صالح. عندها تختلس الدولة ثروات الأفراد لتفعل ما هى غير مهيّأة له، وهى بذلك تُقوِّض حرية الأفراد وأخلاقياتهم، وإحساسهم بالمسئولية، بل وتسلب الجماعات الاعتبارية والمجموعات الصغيرة حقَّها فى تحقيق مجتمع صالح لها[٣٢]. والمنطق الاقتصادى الذى ينساب من الرؤية السياسية لشتراوس المرتبطة بالفرد الفاضل، ورؤية هايك للدور «المؤذى للدولة - malign state» تبنَّاه ملتون فريدمان الاقتصادى ابن مدينة شيكاجو، وبسبب تأثيره تبنَّته إدارة الرئيس ريجان. فما هو مطلوب ليس إعادة توزيع الثروة وإنَّما أن تنحو نحوا «مقاوليًا - entre preneurialism»، فليس من عمل الدولة أن تحسِّن أحوال الفقراء وإنما هذا هو عمل المواطنين الصالحين الذين يعرفون كيف يُجنِّبون أنفسهم الفقر وكيف يساعدون الذين يعانون منه. فما يسمَّى الآن «المحافظة الرحيمة - Compassionate Conservatism» الذى حل محل دولة الرفاهية، يعتبر تدخُّل الدولة فى إطارها لتحقيق الرفاهية الاجتماعية تطفّلاً وتدخُّلاً فى حريات الأسر والجماعات التى هى أدرى بالطريقة التى تساعد بها نفسها. وباختصار فإنَّ الاقتصاد الليبرالى الجديد يمثل عودة إلى عقيدة اقتصاد عدم تدخل الدولة Laisse Faire فى القرن التاسع عشر، وتنازل عن فكرة أنَّ الدولة يمكنها أن تفعل ما هو صالح، فهذا أمر مشكوك فيه. والإدارات الأمريكية منذ ريجان - سواء كانت جمهورية أو ديمقراطية - راحت تخفّض إنفاق الحكومة الفيدرالية

على الرفاهية الاجتماعية والصحّة والتعليم والمشروعات العامة، بينما راحت تزيد الإنفاق الفيدرالى على الشرطة والسجون والجيش. إنّ الدور الشرعى للدولة من المنظور الليبرالى الجديد هو منع النشاط الإجرامى وتحسين الأوضاع «الأمنية» خاصة لحماية ملكيَّة المواطنين وثرواتهم الخاصّة، وحماية المؤسسات المالية والاقتصادية الأمريكية سواء داخل أمريكا أو خارجها.

وكل عنصر من عناصر «الليبرالية الجديدة ـ neo Liberalism» على الصعيدين الأخلاقى والاستراتيجى، واضح بجلاء فى أحاديث وسياسات إدارة بوش. لكن بوش يضيف مكوِّنًا آخر حاسما لأجندة «الإمبريالية الجديدة البارزة»، ونعنى به المزاوجة بين الخطاب الرُّؤَيوى الدينى القائم على التدبيرية الإلهية من ناحية، والعناصر الأساسية للأخلاقيات الاجتماعية للبروتستانتية الأمريكية خاصة «التراث المسيحى الواقعى الذى قال به رينهولد نيبور. لقد ذكر بوش فى خطاب التولية أنَّ الأمريكيين قد اعتمدوا على الدولة اعتمادا كبيرا لتحقيق المجتمع الصالح، وهذا قلّل من المواطنين النشطين المعتمدين على أنفسهم والذين يتحلَّون بالفضيلة والذين يؤدون دورهم فى الاستجابة لحاجات جيرانهم، بدلا من الاعتماد على الدولة فى تقديم هذه الحاجات لهم:

«يقع على عاتق الحكومة مسئوليات كبيرة لتحقيق الأمن العام والصحة العامة، الحقوق المدنية والمدارس المشتركة. ومع هذا فإن التعاطف هو من عمل الأمة (الشعب) وليس الحكومة فحسب».

وبصدد معارضة بوش لبرامج الرفاهية الاجتماعية و«المعاونة الطبية ـ Medicaid» ولبرنامج رصد الأموال للإجهاض، زعم بوش أنَّ الله يقف إلى جانبه فى معركة الخير ضدّ الشر الذى يتصدى للأفراد النبلاء العطوفين والمواطنين النشطين باستخدام الدولة المهيمنة الفاسدة (غير الملتزمة بالأخلاق). وافتراض بوش أيضًا أن الأمريكيين فى الماضى كان لديهم تقاليد أقوى فى الخدمة والتضحية بالنفس أكثر مما هم عليه الآن فى بعض الأحيان. والتحدى الذى يواجهه الأمريكيون ـ فيما يرى ـ هو الانتقال من الهدف المعيب المتمثِّل فى «خدمة النفس» إلى الدعوة الأخلاقية المتمثلة فى خدمة هدف مشترك ـ العمل ضد قوى الشر:

«أمريكا فى أفضل حالاتها هى مكان نتوقّع فيه أن يتحمل الفرد مسئوليته، ونتوقع فيه أن يحظى تحمل المسئولية بالتقدير. فتشجيع تحمل المسئولية ليس بحثا عن كبش فداء، وإنما هو دعوة لـ «إحياء الضمير». ورغم أنَّ هذا يتطلب التضحية فإنه يؤدى إلى إنجاز أعمق... إن مصلحتنا العامة تعتمد على الطبيعة الشخصية للأفراد وعلى الواجب الحضارى وعلى تماسك الأسرة وعلى الالتزام بالأسس الصحيحة ومستلزمات المعيشة اللائقة، فكل هذا هو الذى يوجهنا إلى حريتنا».

فبوش - إذن - يعلن قصْده وهو تشجيع الأفراد والمؤسسات الدينية لتلبية حاجات الذين لا يجدون من يعينونهم والفقراء والعاطلين من الأمريكيين:

«بعض الاحتياجات وبعض الأمور المسبِّبة للضرر عميقة جدًا لا يمكن الاستجابة لها إلا من خلال لمسات المخلصين الطيبين أو دعوات رعاة الأبرشيات، والكنائس، وتقديم الصدقات، ومن خلال المعابد اليهودية والمساجد؛ لأنها أماكن موقَّرة فى مخططاتنا وفى قوانيننا. كثيرون فى بلادنا لا يعرفون آلام الفقر لكن يمكننا أن نُصغى لأنَّات من يشكون منه. ويمكننى أن أتعهّد لأمتنا بهذا الهدف: عندما نرى مسافرًا جُرِح فى الطريق إلى «أريحا» لن نتركه لنعبر إلى الناحية الأخرى من الطريق»[٣٣].

فملامح أمريكا التى يريد بوش أن يراها هى: الفضيلة الشخصية والأعمال المنطوية على رحمة وشفقة يقوم بها أفراد، والتعاطف الشخصى والصدقة بوازع دينى. والشكل الإطارى لتحقيق هذا سيكون هو مجتمع يحترم الملكية الخاصّة والحرية الفردية اللتين تقلّلان من المطالب المالية التى تفرضها الدولة على الأثرياء - لقد وَعَد بشكل خاص «بتخفيض الضرائب» فى خطابه حتى وهو يزعم أن على الأمريكيين واجب معالجة مشكلة «الفقر العميق - deep poverty» - كما وعد بتحسين روح التعاطف من خلال تقديم الصدقات، وأعمال البر، وتشجيع الجماعات الدينية، لتفعل ما تستطيع فعله أفضل من الدولة:

«حيث توجد مُعاناة، يوجد واجب. فالأمريكيون المعوزون ليسوا غرباء. إنهم مواطنون. إنَّهم ليسوا مشكلة، وإنما أولويات. وكلنا معرَّضون للضعف عندما يكون بعضنا فاقدى الأمل. ويقع على عاتق الحكومة مسئوليات كبيرة لتحقيق الأمن العام،

والصحة العامة والحقوق المدنية والمدارس المشتركة. ومع هذا فالتعاطف هو من عمل الشعب (الأمة ـ nation) وليس الحكومة فحسب».

تُظهر مقولة بوش السابق عرضها لُغزا غريبا فى «الليبرالية الجديدة ـ ne liberal» أو ما يسمّى الآن تفكير «المحافظين الجُدد ـ neo conservative» عندما يستخدم المعاناة الإنسانية لحث المواطن الصالح على العمل، بينما نجد أن الوعد بتخفيض الضرائب والإنفاق العسكرى يصب فى صالح الأثرياء والمؤسسات الأمريكية لدعْم «رسالة الحرية ـ message of freedom» فى أنحاء العالم الذى لا يزال يقاومها. فكرة بوش عن «العمل العام ـ public action» ـ مثل فكرة هايك وشتراوس ـ وهى أنه مشكوك فى نتائجه لأنه قائم على الإجبار (قسْرى)، بينما عمل الأفراد ومؤسساتهم الدينية والخيرية هو الذى يتعاطف مع المعاناة البشرية ويُحسِّن أوضاع الناس. وعلى أية حال فإن هذا التناقض يتجلّى فى أنّه لم يختر تقليص إنفاق الدولة. بل العكس فقد أوجد أكبر عجز فى ميزانية الولايات المتحدة طوال تاريخها ـ عجزا مقداره ٣٧٤ بليون دولار وقت كتابة هذا الكتاب، وهذا العجز يرتفع بمعدل ١,٦ بليون دولار يوميا ـ من خلال المزاوجة الخيالية (الدونكيشوتية) بين تخفيض الضرائب والزيادة الكبيرة فى الميزانية العسكرية[٣٤]. هنا لا نجد دولة معتدلة (تريد قصر سلطاتها على «الحد الأدنى»)، وإنما نجد شهية مفتوحة إلى أقصى حد لأموال المواطنين ولموارد العالم، شهيةً لا حدود لها.

وما يريد أن يقوله بوش عن القيم الأمريكية والفضائل الأمريكية هو أيضًا قول «زائف» فمقولاته تَحُثُّ المجتمع على التضحية والتعاطف مع الجيران، ولكن عقودا من الأنماط السلوكية الاستهلاكية المفرطة، والولع التكنولوچى والفردية المفْرطة قد عجَّلت ـ وبعمق ـ بثقافة الفساد (الانحطاط الأخلاقى)، كما حاجج «ريتشارد ستيڤرز» بقوَّة فى كتابه «ثقافة الكلبية ـ The Culture of Cynicism»[٣٥]. إن أمريكا ـ إذا وضعنا فى اعتبارنا عدد حالات الإجهاض، وكذلك الإعدام والسجن والحجز ـ تبدو وقد اعتنقت ثقافة الموت كما تُبيّن كثير من أفلام هوليوود الأكثر تشاؤما، وكما تُبين الروايات «الرؤيوية ـ apocalyptic» «الانجذاب للموتى ـ necrophilic» لفنّانى ما بعد الحداثة.

وكما يشير مُنْتَقدو العوْلمة، فإنَّ إيجاد سوق مفترض بغير حدود تقل فيه كثيرا الحواجز أمام الاستثمار الأمريكى والنفوذ الأمريكى، إنما هو عوْلمة لهذه الثقافة الأمريكية ـ ثقافة الموت[٣٦]. فطالما أنّ المؤسسات الأمريكية تشترى الموارد الطبيعية، والخدمات العامة، بل وحتى الماء فى أمريكا اللاتينية وما وراءها، فإن الأيديولوچيا التى يُطلق عليها «أسواق العوْلمة (الحرة)» ينتج عنها وضعٌ يُحرم فيه الفقير من أدنى ضروريات الحياة؛ بسبب أسواق العولمة هذه. وعندما تنهار الاقتصاديات تحت ضغط الأعباء الاقتصادية التى تفرضها بنوك أمريكا ومؤسساتها؛ فلن تكون النتيجة سوى مجاعات عامة فى دول مثل الأرچنتين كانت يومًا ما دولة منضبطة وفى حالة رخاء نسبى[٣٧]. وعلى وفق بيانات اليونيسيف، فإن ١٠٪ فقط من الميزانية العسكرية الأمريكية يكفى لإنقاذ الملايين من الموت، تلك الوفيات التى تحدث فى العالم كل عام نتيجة الجوع والأمراض التى يسهل علاجها. لكن الإنفاق العسكرى دعم مؤسسات الطاقة أهم بكثير فى التدخلات الأمريكية فى أسواق العالم من إنهاء المعاناة البشرية[٣٨]. مرَّة أخرى نصل إلى اللغز الغريب فى خطاب بوش الذى ألقاه بمناسبة توليه الرئاسة، حيث نجده يعفى الحكومة من مسئولية دعم الفقراء، ويطلب من المواطنين الصالحين القيام بذلك، وفى نفس الوقت يخفض الضرائب على الأثرياء، ويزيد الإنفاق العسكرى ليستفيد الأثرياء والمؤسسات، ويزيد الإنفاق لنشر «رسالة الديمقراطية» بشكل قَسْرى. تبدو فكرته عن العمل «العام ـ public» منطوية ـ وبعمق ـ على الإكراه والجبر والعنف، بينما الأفراد وهيئاتهم الدينية ومشروعاتهم الخيرية ـ فقط ـ يمكن أن يكونوا متعاطفين مع المعاناة البشرية وقادرين على التخفيف من وَطْأتها.

فَصْل بوش الحاد بين القَسْر العام (الحكومى) والحرب من ناحية، والتعاطف والتقوى على المستوى الخاص (غير الحكومى) يلقى ضوءًا لا بد من إدراكه بوضوح على العلاقة بين الكنيسة والدولة، تلك العلاقة التى تُعززها إدارته. فبوش ومؤيدوه مُتهّمون بأنهم يسعون لإنهاء الفصل التقليدى بين الكنيسة والدولة. وهذا صحيح بمعنى من المعانى. فبالإضافة إلى مكتب «المبادرات القائمة على الإيمان»، فإن البيت الأبيض ـ فى عهد بوش ـ يعقد اجتماعات للصلوات ودراسة الكتاب المقدس للعاملين فيه، أكثر

مما كان يحدث فى أية إدارة سابقة، وچون أشكروفت يقيم الصلوات ويدرس الكتاب المقدس مع العاملين فى مكتبه يوميًا. وريتشارد لاند عضو مؤتمر المعمدانيين الجنوبيين، هو مسئول سياسى فى قلب إدارة بوش ـ ريتشارد هذا منتقد للجهود الإنسانية العلمانية «لتخليص الميدان العام من وجهات النظر الدينية التقليدية»[٣٩] ـ ويسوق لاند الحجج ليؤكد أن الأمريكيين المسيحيين وغير المسيحيين لهم الحق فى أن نعطيهم آذانًا صاغية لنسمع وجهات نظرهم الدينية وقيمهم فى مجال السياسة العامة. ولا بد أن يكون الأطفال الأمريكيون قادرين على ممارسة قناعاتهم الدينية فى المدارس العامة[٤٠].

أيُعد هذا كله إعادة هيكلة شاملة للأخلاق فى الميدان العام؟ أو بتعبير آخر: أهذا كله إعادة لصبغ الحياة العامة بـ «الصبغة الدينية ـ religious remoralisation». أيُحكم الأمريكيون الآن ـ سواء أحبوا ذلك أم لم يحبوا ـ بثيوقراطية؟ حسنًا، من الواضح أن بوش والمسيحيين فى الفريق العامل معه لا يرون أنفسهم ثيوقراطيين. يقول ريتشارد لاند: إن هناك فرقًا واضحًا بين أفراد يعملون لتنظيمات بها نظام الاعتراف للكاهن أو يتحدثون باسمها، وأفراد يُسيِّرون الأعمال العامة. فالمشروع إذن ليس «تمسيح ـ Christianize» الدولة وإنما هو تقليص نفوذها على الحياة «الخاصة» للأمريكيين، مما يؤدى إلى تقوية الأمريكيين وأسرهم وتجمعاتهم الدينية لاستعادة روح التعاطف والخدمة الاجتماعية الأخلاقية، حتى لا تُصبح قَصْرا على الدولة التى يؤدى ما تنفذه من برامج صحية وبرامج مرتبطة بالرفاهية الاجتماعية إلى زيادة روح التواكل والعجز، أكثر مما يؤدى إلى خلق مواطنين صالحين. وإدارة بوش فى نقدها للثقافة الأمريكية العامة والخدمات العامة على أنها تميل لإضعاف أخلاقيات، بل وتفسد المواطنين، لم تكشف ـ فقط ـ حماسها الدينى لاقتصاد الليبرالية الجديدة، وإنما أيضًا تأثير ما قبل الألفية عليها، مثلما أسرت ما قبل الألفية قطاعًا كبيرًا من المسيحيين الأمريكيين المحافظين.

هذا التناقض بين وضع بوش والمحافظين الجدد، وهو جَعْل الأولوية للحرية الفردية والملكية الخاصة، والفضائل الشخصية وتقديمها على الجهود الديمقراطية والجماعية لتحقيق العدالة الاجتماعية، «الصالح العام ـ common good» هو وضع لا يمكن وصفه ـ بلا جدال ـ بأنه تقليدى أو محافظ، أو ترويج لمجتمع يتحلَّى أفراده بالفضيلة والقدرة على أعمال البر والإحسان. بل حتى لا يمكن وصفه بأنه محافظ؛ لأن الأفكار

الجمهورية المحافظة الحقيقية كما قال بها بورك وچيفرسون تضمّنت فهما للسلوك الخيِّر كما تقضى به واجبات النبالة ـ ولدعاوى الصالح العام التى يراعيها الأثرياء. كما رأينا، فإنه فى ظل عقيدة الرأسمالية النيوليبرالية تراجع الأثرياء إلى مجتمعاتهم الضيقة الموصدة الأبواب، لا يكادون يقابلون الفقراء المجاورين لهم ولا يكادون يزورون مواقع العمل التابعة للشركة. وقد جرى تشجيع المحسنين الأثرياء بتخفيض الضرائب عليهم، هذا التخفيض عادة ما تُوجهه مؤسسات المجتمع الأمريكى الكبرى إلى الجامعات و«مراكز الأبحاث ـ think-tanks» التى تتعلم فيها ـ وتتجمع ـ «الصفوف الأعلى»، أكثر من أن توجهه إلى الأحياء والمناطق الفقيرة.

هنا نجد واحدًا من الألغاز المحيرة فى اتساع نفوذ «اليمين المسيحى» على الاقتصاد السياسى الأمريكى، الذى به يعتبر انتخاب بوش مجرد أحدث حلقة فى سلسلة أحداث يمكن تتبّعها قبل ذلك إلى فترة حكم ريجان، لقد ربح بوش والمحافظون الجدد المداهنة من أصوات الجمهوريين المسيحيين المحافظين لتحرير شركاتهم ومؤسساتهم وأثريائهم من الأعباء الضريبية، ولسحب الصفقة الجديدة لدولة الرفاهية، ولمعاقبة الأسر ذات الوالد الواحد(*) والعاطلين، وغيرهم من الكسالى الخاملين، بإنقاص الدَّعم المقدم للرفاهية الاجتماعية وغير ذلك من العقوبات. لقد طرق كلينتون وجور الطريق نفسه، لكنهما لم يكسبا أصوات المسيحيين المحافظين؛ لأنهما لم يلتزما بجوهر قضايا المسيحية المحافظة، مثل قضايا الإجهاض والأخلاق الجنسية وإسرائيل. وأيا من كان هو الذى سيخلف بوش سواء فى ٢٠٠٤ أو ٢٠٠٨، ديمقراطيًا كان أم جمهوريًا، فإن عليه أن يسلك الطريق نفسه، فإن حدث هذا فهو مجرد مؤشّر آخر لقوى تحالف «اليمين الدينى ـ religious right» مع اقتصاديات الليبرالية الجديدة، والتى تكونت حول ما يسميه چوزيف ستيجلتس «إجماع واشنطن ـ Washington Consensus»(٤١). لكن السؤال هو ما إذا كانت «المحافظة العاطفية ـ passionate conservatism» ـ كما يعتقد بوش ومؤيدوه المسيحيون المحافظون ـ حقيقة تمثل ابتعادًا عن «الإنسانية العلمانية ـ secular humanism» فى السياسات الأمريكية؟ إنها تبدو للعمال الأمريكيين والفقراء ولضحايا «إجماع واشنطن» عبر البحار، تشبه كثيرًا التأكيد

(*) التى ينفصل فيها الوالدان، أو التى تنشأ ـ من الأصل ـ بدون زواج ـ المترجم.

من جديد على السلطة العلمانية لرأس المال والمؤسسات المتحررة على العمال والمواطنين العاديين، حتى وإن لبست العباءة السَّامية للحرب الصليبية الرؤيوية والتقوى والفضيلة.

***

استدعاء الرؤيا

رأينا إلى أى مدى كان التحول المشئوم للفكر الاجتماعى والسياسى الأمريكى فى النصف الثانى من القرن العشرين، وازى التحول الرؤيوى الأمريكى واللاهوت الألفى من الفكر المتفائل لما بعد الألفية، والذى قال به جوناثان إدواردز أو «حركة الإنجيل الاجتماعى ـ Social Gospel» إلى فكر ما قبل الألفية القائل بنهاية العالم، والذى أخذ به دربى وليندساى و«الأغلبية الأخلاقية ـ Moral Majority»(*). وهنا يظهر سؤال، أثَمة علاقة بين هذا التحوُّل المتوازى فى الثقافتين الاقتصادية والدينية؟ إنّ الرّابط الواضح بين كلّ من النظرية السياسية الليبرالية الجديدة (أو ما تسمى الآن نظرية المحافظين الجدد) من ناحية، واللاهوت ما قبل الألفى، هو فى التشاؤم فيما يتعلق بإمكانية وجود أمريكا أخلاقية، أو عالم أفضل. كلاهما اعتبر الحلم بأمريكا «الصالحة»، أو أمريكا «مدينة فوق التل» قد فشل. وكلاهما أيضًا ينظر للقوة الأمريكية على نحو أكثر من خلال مصطلحات المصالح الذاتية وليس من خلال التعاون العَوْلمى. بل إن بوش قد حاول زيادة التعريفة على الواردات، كالحديد القادم من أوروبا لحماية الصناعة فى داخل أمريكا مع أنها ـ ملتزمة باتفاقية «التجارة الحرة» مع منظمة التجارة العالمية WTO.

وقد جنَّبت إدارة بوش الأمم المتحدة فيما يتعلق بسياستها فى الضربات الإجهاضية (الاستباقية)، وعارضت التعاون الدولى فى أمور مثل معالجة التغيرات المناخية، والحد من التسلّح. لقد كان تعاملها مع قضية الحد من التسلح ممثلا فى التهديد بغزو بعض الدول التى تشك فى أنَّها تمتلك أو فى سبيلها لامتلاك أسلحة دمار شامل، بينما راحت أمريكا تخزن مثل هذه الأسلحة لتبيعها لحلفائها الحاليين رغم أن هؤلاء الحلفاء ـ بطبيعة

(*) أسسها چيرى فالويل ـ المترجم.

الحال ـ قد ينقلبون فى المستقبل ضد أمريكا ويتوقّفون عن خدمة مصالحها، كما حدث مع صدّام حسين.

والقائلون بـ «التدبيرية الإلهية» مثلهم مثل بوش نزّاعون لانتقاد تجمعات الأمم انتقادا عميقا، خاصة الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبى، فهم يرون مثل هذه التجمعات دليلاً على نهاية الزمان وأنها حكومة عالمية خبيثة ستؤدى فى النهاية إلى دعوة عدو المسيح لرئاستها. وفيما يرى القائلون بالتدبيرية الإلهية ـ وكذلك بوش ـ فإن قوة أمريكا تكون فى أفضل حالاتها عندما تُستخدم من طرف واحد؛ لأن لها دوراً فريداً عليها أن تلعبه فى نهاية الزمان، وهو أن تجعل الشرق الأوسط آمنا بالنسبة لإسرائيل، وأن تهيئ الظروف تجعل المنتصر يأخذ كل شىء والتى سينتهى فيها التاريخ.

يوجد هنا تعاون خادع بين نوع المنظور الفردى فى التاريخ الرؤيوى الذى يرى نهاية التاريخ مسألة قدريّة محتومة، لا بد أن تسبقها الحروب والتهديدات بالحروب. وفهم المجتمع مُداراً بشكل أفضل لا من خلال حكومة أخلاقية، وملتزمة بتحقيق أهداف بعينها، وإنما من خلال يد السوق ـ غير المرئية ـ التى تربط بين المشترين ومقدّمى البضائع والخدمات وتتوسط بين الطرفين. وبالنسبة للقائلين بالفكر قبل الألفى، فإن الأفراد الصالحين سيُنزعون بشكل غامض ومفاجئ من أسرّتهم أو أماكن أعمالهم بيد القُدرة الإلهية، وبذا يتم إنقاذهم من الحريق القادم ـ وهو حريق هائل ناتج عن معركة هرماجدون عندما يتم «الاختطاف ـ Rapture». وفيما يقول المؤمنون بالسوق الحر، فإن الأفراد سيتم «تخليصهم» عن طريق أيدى قوى السوق غير المرئية ولا يستطيع أى عمل جماعى أن يؤثر بشكل حاسم فى أقدارهم، فى الحالتين.

فى ضوء التأثيرين المزدوجين لهذين النوعين من القَدَريّة (المحتومة)، قدرية القائلين بالتدبيرية الإلهية وأيديولوچية السوق «الحرّة» ـ التى هى فى الحقيقة سوق مهيأة لتعظيم قوىَ المؤسسات على حساب المواطنين داخل الولايات المتحدة وخارجها ـ يمكن فهم ازدياد وحشية تأكيد المصالح الذاتية الأمريكية فى كل قارات العالم فى السنوات القليلة الماضية. لقد راحت نخبة المؤسسات الأمريكية ترى نفسها ـ بشكل متزايد ـ مرتبطة بحرب كوكبيّة لاستمرار رخائها ومواصلة طريقتها فى الحياة، ولتوجيه كل التاريخ البشرى لصالح أمريكا. فى هذه الحرب لا قيود ولا موانع ولا شىء يستحيل التفكير فيه

حتى استخدام السلاح النووى. فالولايات المتحدة تحت حكم بوش لم تُحوِّل ـ فقط ـ ميزانيتها العسكرية الضخمة نحو «برنامج حرب النجوم الجديد ـ anti-ballastic missile system»، وإنما بدأت أيضًا فى إنفاق مبالغ طائلة فى تطوير جيل جديد يمكن استخدامه من الأسلحة النووية الميدانية[٤٢].

أعماق هذا الجانب المظلم من الفكر الجديد اللاأخلاقى للقوة الاجتماعية ـ خاصة الأمريكية ـ الممثّل فى أنَّ تعاون هاتين الأيديولوچيتين الآنف ذكرهما فى إدارة بوش، إنما هو فى الواقع أعماق بعيدة الغور، وإدارة بوش تمنع بكل ما فى وسعها تحقيقات الكونجرس ووسائل الإعلام من الكشف عن أبعاد هذه الظُّلمة، أو إلقاء الضوء عليها. وتشتمل هذه الظلمة على الأحداث المحيطة بالوقائع المأسويّة للحادى عشر من سپتمبر. فكما رأينا فإن الـ «PNAC» كان قد ساق الحجج لعدَّة سنوات ليؤكد احتياج الولايات المتحدة الطارئ والملح لزيادة إنفاقها العسكرى بشكل كبير لضمان أمنها الاقتصادى والعسكرى؛ لتتمكّن من التحرّك ضد الأخطار المحتملة، ولاستخدام القوات المسلحة لتوسيع نطاق المصالح الأمريكية فى المناطق الغنية بالبترول فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى.

لقد خطا «برزينسكى» خطوات للأمام فى سنة ١٩٩٧م بفرض الديمقراطية على النمط الأمريكى بالقوة وفرض حكومات خاصة تابعة فى آسيا الوسطى، وقد كان برزينسكى مستشارًا للأمن القومى فى إدارة كارتر، وقد افترض أنه من **«الضروريات الأساسية للسياسة الإمپريالية الأمريكية هى منع التآمر أو التواطؤ، واستمرار اعتماد «المقْطَعين(*) ـ Vassals» على الولايات المتحدة فى الأمور الأمنية، ليكونوا خانعين مطيعين ومحميِّين، ومنع البرابرة (غير المتحضِّرين) من التكتل معا،** وفى سياق آسيا الوسطى فإن هذا يعنى تأكيد تفوق الوجود الأمريكى عسكريًا فى المنطقة[٤٣]. ويلاحظ

(*) المُقْطَع: شخص يقطع له الإقطاعى أرضًا، مقابل أن يتعهد هذا الشخص بتقديم العون العسكرى للإقطاعى وقت اللزوم، وبالطبع يقوم الإقطاعى، أو الولايات المتحدة، بتقديم السلاح لهذا «المُقْطع»، ويدربه على استخدام السلاح للسيطرة على الأرض، وهو هنا الشعب، تحت مُسمى التعاون العسكرى، ويقوم بعمل كل الخدمات والتسهيلات للمؤسسات الأمريكية لترى مصالحها فى أسواق ذلك الشعب وعمله وأعماله، تحت مسمى الإصلاح الاقتصادى. ولناعوم تشومسكى تسمية أخرى لذلك المُقْطَع: «مفوض، أو قومسيونجى ـ commissioner» ـ المترجم.

برزينسكى أنَّ حشد الدَّعم العام لعسكرة الاستراتيچية الأمريكية الچيوپوليتيكية المطلوبة فى هذه المنطقة النائية سيكون صعبًا جدًا لأنه يشمل تحولاً هائلاً فى أولويات البنتاجون ووزارة الخارجية وغيرهما من أجهزة الحكومة الأمريكية. وما يذكره برزينسكى يذكّرنا باستراتيچية الإمبراطورية الرومانية، إذ يقول عالم الاقتصاد السياسى النمساوى «چوزيف شمپتر»:

«لم يكن هناك ركن فى العالم المعروف يحوى شيئًا من المصالح إلا وهو معرَّض للخطر أو الهجوم الفعلى. وإذا لم تكن المصالح رومانية، فهناك حلفاء روما، وإذا لم يكن لروما حلفاء فلا بد من إيجادهم. وعندما يستحيل ابتداع مثل هذه المصالح (إيجادها)، أصبح الشرف الوطنى (والمقصود الشرف الإمبراطورى) مهانًا. لقد كانت الحرب دائمًا تُستثمر فى جو مليء بعبير الشرعية. فقد كانت روما دائمًا يهاجمها جيرانها الأشرار، وكانت تحارب دائمًا من أجل مساحة تتنفَّس فيها. العالم كله تنتشر فيه جموع الأعداء ومن واجب روما - كما هو واضح - أن تحرس نفسها من خططهم العدوانية التى لا تتغير»[٤٤].

هذه النظرة للعالم واضحة وضوحًا شديدًا فى خطاب إدارة بوش وفى عسكرة الاستراتيچية الچيوپوليتيكية لأمريكا، تلك الاستراتيچية التى أوصى بها الـ «PNAC» أولا. لكن المشكلة بالنسبة لإدارة بوش كانت هى كيفية إضفاء نوع من الشرعية على مثل هذه الاستراتيچية. كان الـ «PNAC» قد اقترح أن المطلوب كان هو «پيرل هاربر جديدة» أو بتعبير آخر هجوم من نوع ما على الأرض الأمريكية. وأتت پيرل هاربر الأخرى على شكل هجمات إرهابية، ، فكانت فرصة سعيدة لإدارة كانت تبحث حتى تلك اللحظة عن الشرعية، لم يكن لديها إلا فرصة قليلة لتتابع علنًا الچيوپوليتيكية الطموحة. لكن بعد ١١ سپتمبر تغير كل شيء، على أية حال.

لا يمكن أن يكون ثمّة شك فى أن الكثير قد تغير بمعنى من المعانى فى ذلك اليوم، لكن الخطط الچيوپوليتيكية لإدارة بوش لم تتغير فى اليوم نفسه (١١ سپتمبر)، لكنها ببساطة انتقلت من مجرد رغبات إلى برنامج نشط فى ظل حماية برنامج «الحرب على الإرهاب» الذى أعلنه بوش بسرعة. وخَطَتْ إدارة بوش فى غضون أيام بعد الهجوم خطوات للأمام لتمكينها من شرعية قمع مقاومة مشروعها فى الداخل بإصدارها

«الباتريوت آكت ـ Patriot Act» المتسم بالقسوة الشديدة، وتطويوها لمتابعة برنامجها للضربات الاستباقية ضد أى دولة أو إقليم فى العالم يُكن عداءً للولايات المتحدة. فرصة قمع معارضة السيطرة الچيوپوليتيكية والإمبراطورية للولايات المتحدة كانت قد حانت فى الوقت المناسب تمامًا، فقبل أحداث ١١ سپتمبر بأسابيع تجمّع آلاف المتظاهرين فى چنوة لتحدّى شرعية المؤسسات التى تُحكم أمريكا قبضتها الاقتصادية والإمپريالية من خلالها على العالم: صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومنظمة التجارة العالمية. وعلى النحو نفسه فقد كانت أهداف أمريكا فى أفغانستان قبل ١١ سپتمبر صعبة التحقيق، لكن بعد ذلك تقدَّم ـ بسرعة ـ غزو أفغانستان واحتلالها تحت ستار «الحرب على الإرهاب» رغم عدم القبض على أسامة بن لادن، ورغم أنَّ معظم معاونيه لم يكونوا من أفغانستان، وإنما من المملكة العربية السعودية.

مُزَامَنَة أحداث ١١ سپتمبر والحاجة لأزمة أمنية كبرى لتمكين إدارة بوش من تحقيق الغرض الچيوپوليتيكى يجعل مثل هذا السؤال ملحًا إلحاحًا شديدًا: إلى أى مدى عرفت إدارة بوش عن إمكانية الهجمات على نيويورك وواشنطون قبل حدوثها بالفعل؟ وهل كان من الممكن منعها أم لا؟ لقد كانت المخابرات الأمريكية ومؤسسات الطيران المدنى تعرف منذ سنة ١٩٩٥م أن «بن لادن» والقاعدة ينوون الاصطدام بطائرات مختطفة بمركز التجارة العالمى فى نيويورك، ومواقع أخرى ذات أهمية استراتيچية فى الولايات المتحدة. وفى عامى ٢٠٠٠ و ٢٠٠١م وردت معلومات تفيد أن الخطة الآنف ذكرها على وشك النضوج، وترددت هذه المعلومات فى تقارير المخابرات الأمريكية المقدمة للبيت الأبيض فى عهدى كلينتون وچورچ دبليو. بوش، وكان لدى مكتب التحقيقات الفيدرالى تحذيرات من عدد من عملائه فى عامى ٢٠٠٠ و ٢٠٠١م أن العرب الذين يدرسون فى مدارس الطيران فى «فلوريدا» و«فونكس» وأماكن أخرى يبدون أكثر اهتمامًا بتعلُّم توجيه الطائرات فى الجو أكثر من اهتمامهم بالإقلاع بها أو الهبوط بها. وتلقت المخابرات الأمريكية والإسرائيلية تحذيرات من هجوم مشابه فى سنة ٢٠٠١م، وحُذّرت كل وكالات الأمن الأمريكية من هجوم وشيك تشنه القاعدة فى الأسابيع السابقة على هجوم ١١ سپتمبر. وأكثر من هذا فإن وكالة المخابرات الأمريكية كانت تراقب بإحكام المكالمات التليفونية وخلايا القاعدة

داخل الولايات المتحدة وخارجها وتفيد أخبار ABC ـ على نحو خاص ـ أنهم سجلوا عددًا كبيرًا من المناقشات التليفونية بين الخاطفين فى الولايات المتحدة وأبى زبيدة قائد عمليات «بن لادن» فى الأيام التى سبقت مباشرة هجوم ١١ سپتمبر، رغم أن محتوى هذه المكالمات لم يُعلن أبدًا[٤٥]. لقد كان الشك فى إمكانية حدوث هجوم قويًا جدًا؛ لدرجة أن عددًا من المسئولين فى البنتاجون ألغوا حجوزاتهم للسفر بالطائرات فى ١١ سپتمبر، وذلك على حد ما ورد فى تقرير نشرته النيوزويك[٤٦].

فشل المخابرات الأمريكية فى توجيه تحذير مسبّق للأمريكيين بشأن إمكانية حدوث هجمات ١١ سپتمبر جرى شرحه وفق سيناريوهات مختلفة: الفشل فى الربط بين تقارير مدارس تعليم االطيران لسلطات المخابرات المركزية ومعناها الحقيقى، افتقاد التنسيق بين وكالة المخابرات CIA ومكتب التحقيقات الفيدرالى FBI. فشل الاتصالات بين وكالات المخابرات وأجهزتها وهيئة الطيران المدنى والبيت الأبيض. ولم تكن إدارة بوش حريصة على إلقاء الضوء على هذه الأمور، بل لقد عملت بقوّة وبسرعة بعد ١١ سپتمبر على منع أى من الوثائق والمحادثات التليفونية والتقارير الاستخباراتية والمعلومات الأخرى التى تلقاها البيت الأبيض من مصادر استخباراتية فى الشهور والأسابيع السابقة على أحداث ١١ سپتمبر ـ منعها من أن تُعرض على بساط البحث فى الكونجرس عند مناقشة أحداث هذا اليوم (١١ سپتمبر)، رغم أنه قد نشر فى مارس سنة ٢٠٠٤ تقرير رئاسى صادر فى أغسطس ٢٠٠١ يشير إلى إمكانية أن يكون هجوم ١١ سپتمبر من تدبير تنظيم القاعدة، ولم يتم نشر هذا التقرير الرياسى إلا بضغط من الكونجرس، ووقّع بوش أيضًا أمرًا رياسيًا غير مسبوق بمنع الاطلاع على أية وثائق رئاسية لأى رئيس أمريكى طالما هو على قيد الحياة.

ماذا كانت إدارة بوش تعرف قبل ١١ سپتمبر ولا نعرفه نحن؟ ما المعلومات التى تفرّدت بها عنا ـ سواء قلّت هذه المعلومات أم كثُرت؟

ما نعرفه هو أنه فى الأيام السابقة على هجمات ١١ سپتمبر، كانت هناك خطة عاجلة لغزو أفغانستان واحتلالها، وخطة متوسطة المدى لغزو العراق واحتلاله. لقد كانت كلتا الخطتين جاهزة وفى أدراج أعضاء الإدارة. وكان لديهم أيضًا خطط لمد الوجود العسكرى الأمريكى فى آسيا الوسطى؛ لتقديم الدعم للمؤسسات الأمريكية فى

مخططاتها بشأن المخزون النفطى الكبير فى منطقة بحر قزوين. كل هذه الخطط بدأت توضع موضع التنفيذ، وتُؤتى ثمارها فى غضون الشهور والأعوام التى تلت أحداث ١١ سبتمبر تحت مظلّة «الحرب على الإرهاب».

مبدأ «الحرب على الإرهاب» أكبر بكثير من أن يكون عملاً سياسيّا تقليديّا ضد أفراد بعينهم، أو مجموعات بعينها خططوا ونفذوا هجمات إرهابية على الساحل الأمريكى الشرقى. وإنما هو عمل تكمن خلفه استراتيجية چيوپوليتيكية خُطِّط لها منذ فترة طويلة، لإرساء سيادة عسكرية أمريكية فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، والحقيقة أنَّ الحرب فى أفغانستان والعراق قد شهدت تأسيس عدد من القواعد الأمريكية العسكرية الجديدة فى جمهوريات الاتحاد السوڤييتى السابق مثل: كازاخستان وطاچيكستان. **فقد ارتبطت الحرب على الإرهاب بمعركة هدفها قمع مقاومة القوة الإمبراطورية الأمريكية على الصعيدين الداخلى والخارجى.** فقد سمح غزو أفغانستان والعراق واحتلالهما، بوصفهما جزءا من عمليْن يتستران بشرعية الحرب على الإرهاب - سمح هذا للولايات المتحدة ومؤسساتها بموارد آمنة ولفترة طويلة لاستغلال المخزون البترولى فى العراق ومخزون بحر قزوين المكتشف حديثًا. وعلى أية حال فإن الحرب ليست بالتأكيد بسبب البترول فقط، فهناك استراتيچية چيوپوليتيكية إمپريالية أبعد مدى بكثير تكمن وراء «الحرب على الإرهاب» والأحداث التى أدّت إليه. **فكما يقول الجنرال باسيڤتش فإن الحرب على الإرهاب: «صراع يجرى خوضه باسم «الإمبراطورية الأمريكية» لتحقيق قدرها بوصفها أورشليم الجديدة، فالولايات المتحدة أصبحت هى «القدس الجديدة» أكثر من أىِّ وقت مضى وهى مهيّأة لبسط سلطانها ومدّه بوصفها «روما الجديدة - New Rome»**(٤٧).

***

العنف المقدَّس
وعبادة الحرية الإمپريالية

تحتاج الإمبراطوريات للتضحية بأرواح البشر، وكان هذا معروفًا جيدًا لأولئك الذين شنوا حروب الفتوح والغزوات خلال التاريخ. والسلطة الإمبراطورية هى أكثر

أدوات الهلاك على الإطلاق من بين كل الترتيبات الإنسانية السياسية والاقتصادية، بل إنه خلال التاريخ وجدنا الأباطرة والإمبراطوريات قد قاموا ليسيطروا على مناطق شاسعة من الأرض وعلى رعايا كثيرين جدًا من الشعوب؛ التى تم إخضاعها: بابل وفارس وروما وإسپانيا والبرتغال وبريطانيا وفرنسا وبلچيكا وهولندا وألمانيا واليابان والاتحاد السوڤييتي والصين والولايات المتحدة، والقائمة طويلة، وأعداد ضحايا الإمبراطوريات - وفق روايات الكتاب المقدس - لا يدخلون تحت حصر، فهم بعدد مثل حبات رمال شاطئ البحر. **وهذه الإمبراطوريات غالبًا ما أفرخت دياناتها، وذلك لإضفاء الشرعية على تضحياتها العنيفة، ولإضفاء القدسية على قتلاها. والعبادة التى تخدم - غالبًا - هذا الغرض فى أمريكا هى «الدين المدنى - civil religion» وهذا الدين مرتبط بالفكر «الألفى الأمريكى American millennialism» قد أدى خدمة فعّالة لإضفاء القدسية على «الحرب على الإرهاب» وعلى الأجندة الأوسع للمحافظين الجدد.**

وربما كان چان چاك روسّو هو الذى أصّل فكرة الدين المدنى عندما اقترح فى (العَقْد الاجتماعى) «وممارسة إيمان مدنى خالص تحدده السيادة، ليس بالضرورة عقائد دينية وإنما التزامات اجتماعية لا يكون الإنسان بدونها مواطنًا صالحًا أو مواطنًا مؤمنًا»[٤٨]. ومثل هذا الإيمان لا ينافس الأديان الأخرى بل الأقرب للمعنى أنه يقوم على التسامح مع كل الأديان «طالما أن عقائد هذه الأديان لا تحوى ما يناقض واجبات المواطنة». دين مدنى من هذا النوع رأى فيه روسّو وكذلك إميل دوركايم نوعا من «الرابط الاجتماعى القوى - social cement» للجمهورية الحديثة؛ لأنه يقدِّم محورًا «طقوسيًا» لربط المواطن بالمجتمع الجديد.

وقد اعتنقت أمريكا أفكار روسّو بحماس، فبينما يُفترض أن الأطفال فى المدارس الأمريكية الحكومية لا يشاركون فى صلوات عامة، فإنهم يشتركون يوميًا فى «طقوس» وطنية أمام العَلَم الأمريكى؛ حيث يُقسمون على ولائهم للقيم الأمريكية. وعلى النحو نفسه فإن الراغبين فى المواطنة الأمريكية لا بد أن يُحيوا العلم وأن يعترفوا أن لديهم من القيم والمعتقدات التى تؤهل الشخص أن يكون أمريكيًا. فكما يُدلل روبرت بله فإن الأمريكيين قد طوّروا - من خلال تاريخهم - «مجموعة من العقائد والرموز والطقوس

مرتبطة بأمور مقدّسة تحولت إلى شكل مؤسَّسى» فارتقت إلى مستوى الدين المدنى:

«للدين الأمريكى المدنى أنبياؤه، وشهداؤه، وأحداثه وأماكنه المقدسة، وطقوسه الوقورة ورموزه المحترمة. إنه مهتم بأن تكون أمريكا مجتمعا يتحلّى بالكمال طبقًا لله، ليكون نبراسًا تحتذيه كل الأمم»[٤٩].

فالدين المدنى الأمريكى يعنى دين أمريكا، وفى بؤرة هذا الدين توجد «الطقوس» الخاصة بالعَلَم الأمريكى. يحاجج كلٌّ من داڤيد إنجل وكارولين مارڤن على أن العَلَم هو «وثن ـ totem» بدائى يقع فى قلب نظام قُربانى مقدَّس يربط المواطنين الأمريكيين معًا ليجعل منهم أمة. فإذا أخذنا بنظرية دوركايم الطَّوْطمية هذه «فإن العَلَم يكون شعارًا دالا على موافقة من يستظلون بظله أن يكونوا مجموعة»[٥٠]. لقد أصبح العَلَم ذا دلالة سحرية ومقدسة، من جراء المحاولات القانونية بتحريم حرقه، وبالطقوس التى يُطلب من الأطفال أداؤها كتحية العلم فى المدرسة فى تنظيمات منضبطة وفى المعسكرات، وبوضعه فى المذابح فى كثير من الكنائس وكذلك فى كل مبانى الحكومة ومحاكمها، والأهم هو استخدامه فى لف توابيت قتلى الحروب، بالإضافة إلى الطقس القاضى بتقديمه لشريك [زوجة] الضحية أو والديه تذكارًا «طوطميًا». فالنظام ذو الطابع التَّضْحوى المقدس الذى يُعد فيه العَلَم طوطما، هو عَقْدٌ يُعقد «باستمرار فى الحياة الوطنية وفى الطقوس الوطنية»، بدءًا من تحية العَلَم يوميًا إلى استخدامه فى ظروف خاصة، كالمعارك الانتخابية الرئاسية، حيث يلوّح جماهير المؤيدين بالأعلام وصور الأعلام، واستخدام الأعلام الأمريكية فى الحروب. لكن بينما نجد أن بنية الحياة «الأسطورية» للأمة والتى تساندها الطقوس المرتبطة بالعَلَم، شائعة بين الأمريكيين، فإن السرَّ الذى يخفيه الطوطم هو أن «التضحية بالدم تحفظ الأمّة. لا تُحسب تضحية أعدائنا. سرّ الطوطم ـ المقدس « taboo» الجَمْعى للمجموعة ـ هو معرفة أن المجتمع يعتمد على موت المنتمين إليه»[٥١].

وجود دين أمريكى وما يتطلبه من أن يُقدم الأمريكيون أبناءهم فى حروبها العديدة والمنتظمة، قد عُمِّى عليه بميثولوچيا «الفردية الأمريكية» كما أن التعريف الميثولوچى لأمريكا واضح، فإن الفردية تتخفّى متقنّعة بالمتطلبات الجمعيّة للتضحية البشرية

بتعريف ضحايا أعمال العنف بأنهم «أبطال ضحّوا بأنفسهم»، اختاروا بملء إرادتهم أن يخاطروا بحياتهم ببطولة والتزام بالفضيلة لصالح القضية النبيلة لأمريكا[٥٢]. فـ«المقدس ـ taboo» الذى يخدمه استمرار أسطورة الفردية الأمريكية، هو الحاجة الطوطمية للعنف؛ لأنه (أى العنف) موجود فى قلب الوطنية الأمريكية.

ويحاجج الأنثروبولوچى رينيه چيرارد على أنَّ التضحية العنيفة كامنة فى صلب كل النظم الطقوسية؛ وذلك لأن طقوسًا منطوية على عناصر تضحويّة هى وسائل تستخدمها المجتمعات لاحتواء التنافس، ومنع القتل والعنف خارج الصيغة الطقوسية والشرعية. والفرد الذى يُختار كضحيّة هو كبش فداء فى واقع الأمر ـ كبش فداء يَفْدى المجتمع. فكى نتعامل مع الأزمات التى يبدو أنها تهدد هُويّة المجتمع: المرض، الكوارث المناخية، التنافس بين الأقرباء أو بين أفراد المجموعة، فى كل هذه الأحوال يُحمّل كبش الفداء بأعباء وتهديدات وعيوب فى خبرات المجموعة، فيتم اضطهاده أو طرده أو إلحاق العار به أو قتله[٥٣]. وبطبيعة الحال فا الأمريكيين الحديثين لا يرون أنفسهم ـ بوعى منهم ـ أنهم يعيشون نظامًا مقدسً ضحية. فـ«التضحية بالدم ـ blood sacrifice» تعتبر ملمحًا من ملامح المجتمعات البدائية، على سبيل المثال «مجتمعات الهنود الحمر» أكثر مما هو ملمح مجتمع أمريكا المتنوّر المتقدّم. لكن چيرارد وجد أنَّ محاكاة العنف، وكبش الفداء، والتضحية، موجودة فى كل المجتمعات تقريبًا، بما فى ذلك الحديثة. وهو يحاجج على أن المزاوجة الحديثة بين التضحية الطقوسية والعلم والتكنولوچيا قد أصبحت أكثر خطورة بكثير من التضحية البدائية؛ لأن تكنولوچيا القتل الجماعى تهدد البشرية ليس بسبب حوادث القتل الطقوسى للأفراد فى مناسبات مختلفة، وإنما هى تهدد بالإبادة الكاملة[٥٤]. وعندما تحدَّث كل من مارڤن وإنجل عن «التضحية بالدم ـ blood sarifice» فى أمريكا، اعترفا بأنهما مدينان لچيرارد عندما افترضا أن تكون «التضحية الجمعيّة» مرتبطة بالعَلَم الأمريكى، وأن هذا الارتباط يكون أساس «الهوية الوطنية الأمريكية ـ American national identity». إنهما يُطابقان بين العلاقة الغامضة للأديان الطائفية لأمريكا بنظام التضحية الجمعية الذى أشرنا إليه. فمن الناحية الرسمية تعطى الولايات المتحدة الحرية لكل المجموعات الدينية بوصفها «طوائف ـ denominations» أو « جماعات ـ sects» وتبدو

هذه الحرية مشيرة إلى عدم وجود احتكار دينى فى أمريكا. لكن هذا غير صحيح ويدعو للسخرية؛ لأننا بينما نجد «الطائفية» تتخلّى عن الزعم بحقها فى الاحتكار الدينى للدولة، فإنها تساند حقيقة كون الدولة فى أمريكا هى ـ بالفعل ـ «إله ـ the deity»الدين المدنى الأمريكى؛ لأنّ الدولة وحدها ـ وليس «الإله ـ deity» ـ هى القادرة على طلب التضحية. فالدولة ـ وليس الطائفة ـ هى التى تملك احتكار العنف والقتل: «المبدأ الأساسى لأى نظام دينى هو أن الإله وحده هو الذى قد يَقْتُل، والدولة التى تقتل. والدولة التى تمارس القتل، تسمح لأىّ كان ممن يقبل هذه الشروط بالبقاء، وبمتابعة ممارسة معتقداتهم وليسمّوا أنفسهم بما شاءوا من المسميات. وبمعنى أشمل فإن هدف الدين هو تنظيم «طاقة القتل ـ killing energy» هذا يبين كيفية إنجاز الدين الأمريكى لوظيفته الاجتماعية فى تحديد المجموعة وتنظيمها. على هذا المستوى، فالوطنية ـ بلا جدال ـ هى أقوى الأديان فى الولايات المتحدة(٥٥).

بينما نجد أنه من المحرَّم الاعتراف بأن التضحية بالدم، هو المبدأ المُنظم فى الولايات المتحدة، فإنه مُتضمَّن بوضوح فى التعبئة الواسعة النشطة باستخدام العَلَم فى المؤسسات العسكرية وفى الطقوس العسكرية بما فى ذلك طقوس الموت المعقَّدة، التى تصاحب عودة رُفاة قتلى الحرب الأمريكيين إلى أرض الولايات المتحدة، وقد لُفّت أجسادهم بالعلم الأمريكى بنجومه وخطوطه، إشارة إلى أن القتلى قد ضحّوا بدمائهم.

ليس من مثال أكثر وضوحًا على المدى الذى وصل إليه العَلَم الأمريكى كرمز متعال فى قلب العبادة التَّضْحويّة الأمريكية للوطنية من هذا العرض الكاسح للعَلَم الأمريكى عند اندلاع مسيرات حق الانتماء للوطن عبر أمريكا بعد أحداث ١١ سبتمبر. وعلى هذا راح أناس كثيرون يعرضون الأعلام الأمريكية بنجومها وخطوطها خارج بيوتهم، ومن لم يفعل ذلك اتهمهم جيرانهم وأصدقاؤهم بنقص فى وطنيتهم، ووضع الأمريكيون على سياراتهم ومعاطفهم نماذج مصغرة من الأعلام الأمريكية، وبدأ چورچ بوش والفريق العامل معه فى وضع بادچات (نماذج مصغّرة) للعلم الأمريكى على ملابسهم بعد ١١ سبتمبر، فبعد هذا التاريخ أصبح الربط بين موت الأمريكيين موتًا عنيفًا فى نيويورك، والپنتاجون، والعرض الوطنى للعلم الأمريكى، مظهرًا كُلّى الوجود.

يوضح إحياء عبادة العلم ـ بقوّة ـ الملمح الرئيسى لمقولة مارڤن وإنجل الآنف ذكرها، والتى مؤدّاها أنّ الموت العنيف للأمريكيين، وليس الموت العنيف لأعداء أمريكا هو التضحية الحقيقة المؤثّرة فى توحيد الأمة الأمريكية حول العلم الأمريكى أو العلم الطوطم. هذه النظرة العميقة قد تشير أيضًا إلى سبب انشقاق الأمريكيين بسرعة كبيرة فى دعمهم لإدارة بوش فى قراره خوض الحرب فى العراق؛ لأنه بينما كان هناك عشرة آلاف قتيل عراقى لم يكن هناك إلا أقل من مائة قتيل أمريكى فى العمليات (بفضل التفوق التكنولوچى الأمريكى الكاسح) قبل إعلان إنهاء الحرب رسميًا، رغم أنّ أمريكيين كثيرين ماتوا منذ هذا الإعلان الرسمى. ووفق مقولة مارڤن وإنجل «ليست المسألة مسألة انتصار أو خسارة وإنما المسألة أن يُراق الدم بشكل خطير، فهذا هو العامل الحاسم فى «النجاح الطقوسى»[٥٦]. وعلى هذا فقد يبدو ـ بغرابة ـ محققًا لعكس المطلوب، أن يقرر بوش منع عرض اللقطات التليفزيونية التى تُظهر جثث الجنود الأمريكيين العائدة إلى قواعد القوات الجوية الأمريكية من ميدان الحرب العراقى. من الواضح أن إدارة بوش تعتقد أن مثل هذه الصور ستثير ذكريات حرب ڤيتنام، لكن ثمة دليل قوى على أن التقارير الحقيقية عن لا إنسانية الحرب، التى عانى منها المدنيون كما عانى من قبل المدنيون الڤيتناميون، خاصة الصورة الصحفية التى وضّحت هذه القسوة ـ مثل صورة بنت صغيرة تجرى عارية هاربة من قريتها المضروبة بالناپالم، وجلدها ساقط من ظهرها، فهذه الصورة ـ أكثر من أى شىء آخر هى التى أججت المعارضة ضد حرب أمريكا فى ڤيتنام. وعلى هذا كان القرار بجمع الصحفيين مع الجنود فى العراق وإرهاب الصحفيين الذين رفضوا هذا، وسيلة أكثر فعالية للتلاعب بالأخبار[٥٧].

وحجة أنّ الدين المدنى الأمريكى هو «نظام تضحوى طوطمى ـ totemic sacrificial system» يتضمّن صراعات مسلّحة بانتظام وموت، تساعد على شرح السبب فى أن أمريكا كانت دائمًا مستعدّة على تُسلم عدد كبير من أفراد شعبها وكثير من مواردها للأعمال العسكرية. **أكثر من ستة ملايين قدموا خدماتهم فى الحرب الكورية، وما يقرب من ٩ ملايين فى الحرب الڤيتنامية، ونصف مليون فى حرب الخليج الأولى، ومثل هذا العدد تقريبًا فى حرب الخليج الثانية. فى هذه الحروب الأربعة قُتل من الجيوش الأمريكية أكثر من ١١٠,٠٠٠ قتيل وجرح أكثر من ٢٥٠,٠٠٠ ولم تكن أىّ**

حرب من هذه الحروب دفاعًا عن الأرض الأمريكية، وإنما كانت هذه الحروب تخدم غرضًا أكبر وهو «نشر دين أمريكا ـ advancing the religion of America».

إذا كانت هذه المقولة صحيحة فإن دين أمريكا ـ حقيقة ـ دين خَطر، «دين يؤدى للموت ـ death-dealing religion».

كيف تتواءم المسيحية الأمريكية ـ وبعمق ـ مع هذه العبادة ـ عبادة التضحية بالدم حول طوطمها؟ ـ على وفق تحليل مارڤن وإنجل فإن الجانب المحورى فى الإجابة عن هذا السؤال يكمن فى أن العلاقة بين الكنيسة والدولة كما شكلها الآباء المؤسسون بحيث جعلت الكنائس مسئولة عن الإيمان والتجارب الدينية للأمريكية، بينما جعلت الدولة مسئولة عن أبدانهم. قوض الفلاسفة الأمريكيون البرجماتيون هذا التقسيم للعمل فى القرن التاسع عشر، مثل ديوى ووليم چيمس اللَّذين أصرّا على قصر الدين على الحياة الداخلية للبشر، بينما يُفترض أن تنظم الأحكام البرجماتية والعقل عالم السياسة. لقد عرَّف وليم چيمس ـ الذى كان تناول الدين كتجربة فى كتابه «Varities of Religion Experience» الدين باعتباره «مشاعر الفرد وأعماله وخبراته وهو فى حالة عزلة حتى يفهم نفسه فى علاقته مع من يعتبره إلهًا، أيًا ما كان هذا الإله»[٥٨]. وتحت تأثير هذه الفكرة تم تخصيص الدين بشكل فعّال وفقد قدرته على التفاعل مع الحياة العامة والسياسية فى أمريكا. هذا التحول البرجماتى صحبه بطبيعة الحال ظهور التقوية (الإيڤانجليكية) فى الاتجاه السائد فى البروتستانتية الأمريكية. وكانت النتيجة هى الانعزال المتزايد للبروتستانتية الأمريكية فى القرن العشرين عن تعاليمها السياسية والاجتماعية.

وربما يساعد هذا أيضًا فى شرح كيف أنَّ معظم المجموعات الدينية قد اعتنقت ـ دون تمييز كاف ـ الرمز الأساسى للدين المدنى الأمريكى رغم استغلاله لإضفاء القداسة على الحروب الإمبريالية الأمريكية. فالغالبية العظمى من الكنائس البروتستانتية والمعابد اليهودية ترفع العلم الأمريكى داخلها أو حول مبانيها، بل وتعرض كثير منها هذا العلم داخل المذبح نفسه، فالخدمات الدينية الطائفية ستشمل إشارة إلى الاحتفالات المتعلقة بالدين المدنى مثل: «يوم الذكرى ـ Memorial Day» و«عيد الشكر ـ Thanks giving»

والرابع من يوليو، والمناسبة الأكثر حداثة يوم مارتن لوثر كنج. . والكنائس الأمريكية أيضًا تشارك فى الحلم الأمريكى وتحتفى بنهج الحياة الأمريكية. بمختلف الطرق بدءًا من الإشارة إلى المنتجات الاستهلاكية فى مجلات الكنيسة أو الاحتفاء أثناء القداس والصلوات الدينية بتقدم أعضائها وازدهار أحوالهم وتقدّمهم فى مختلف المجالات كشاهد على البركة الإلهية التى حلّت عليهم. وتأخذ ظاهرة «الكنائس الضخمة ـ Megachurch» هذه الاحتفالات رافعةً إيّاها إلى ذرى عالمية جديدة عندما يصبح مبنى الكنيسة «سوقًا ـ مولاً» تجاريًا يحيطه كما يحيط المولات (الأسواق) الأخرى مواقف سيارات واسعة، وتقدم ـ الكنائس ـ كل شىء بدءًا من الألعاب الرياضية، ووسائل الترفيه، ومنافذ التسويق إلى صالات استخدام الحواسب الآلية، والمقاهى، وصالات الاستشارات والعلاج النفسى، وقاعات العبادة المصممة على نسق صالات السينما، حيث نجد ـ مرة أخرى ـ العلم الأمريكى ـ معروضًا بشكل نمطى سائد[٥٩].

ويشير التأثير الواسع للعَلَم والدين المدنى على المسيحية الأمريكية، أيضًا، بالدور الذى لعبته الكنائس فى تضخيم الشعور الوطنى والأحزان الوطنية التى اجتاحت البلاد بعد ١١ سبتمبر.

لقد لوحظ أن الرئيس بوش استخدم خطابًا فى الصلوات التى انعقدت فى ١٤ سبتمبر ٢٠٠١ فى الكاتدرائية الوطنية فى واشنطن ليمتدح جَلَد الأمريكيين فى مواجهتهم للمأساة، وليشير إلى نية «تخليص العالم من الشر»، وهى نية لم يزعمها حتى يسوع المسيح نفسه: «بعد مرور ثلاثة أيام فقط(*) من هذه الأحداث فإن الأمريكيين لم يعودوا بعيدين عن التاريخ، لكن مسئولياتنا إزاء التاريخ قد أصبحت بالفعل واضحة: أن نرد على الهجمات وأن نحرر العالم من الشر»[٦٠]. تشير هذه الجملة فى هذا السّياق الطقوسى إلى أن بوش اعتزم أن يمضى أبعد من ريجان للدفع بالدِّين المدنى إلى مهمة إلهية بشن حرب ضد «أعداء أمريكا»، فبوش ـ مثله فى هذا مثل ريجان ـ يعتقد أنَّ أمريكا وحدها تقف كلها وبقوَّة ضد شرور الشمولية والطغيان. وعلى النحو نفسه فإن المسيحى (الإيڤانجليكى) المحافظ تيموثى لاهى رئيس الائتلاف

(*) يتمثل فى انتفاضة أمريكا بعد ثلاثة أيام من الحادث، مثل ما فى العقيدة المسيحية من قيام المسيح من الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه ـ المترجم.

الأمريكى للقيم التقليدية يحاجج بأنه بدون أمريكا سيخسر عالمنا المعاصر تمامًا معركته من أجل العقل وسيعيش ـ بلا شك ـ فى دولة هى عالم واحد يتَّسم بالشمولية[٦١].

هذا التواصل بين (الإيڤانجليكية) المحافظة والدّين المدنى، يشير إلى جذور الدين المدنى الأمريكى فى المسيحية البروتستانتية. لكن عقائد الدين المدنى تختلف اختلافًا جوهريًا عن «المسيحية التقليدية ـ orthodox Christianity». بإهمالها عقيدة التثليث، خاصة تجسّد يسوع المسيح الذى قاوم الشر بغير عنف، والذى سيق للموت على أيدى الإمبراطورية ـ وبدلا من هذا فالمسيحية الإيڤانجليكية المحافظة تركّز على قصة الإله الخالق الذى وضع العالم فى حركته، والذى كشف أغراضه الإلهية بالنسبة للتاريخ ـ خاصة تاريخ أمريكا ـ كنوع من «العناية الكامنة ـ latent providence». هذا «الإله» لا يمكن إدراكه بشكل مباشر إلا من خلال فرد متديّن تقى، خاصة من خلال تكريس الفرد لتأثيرات الصلب التكفيرى للمسيح. لكن فى العالم العام، فإله أمريكا هو الأب المقدَّس للأمّة الذى يغمرها بالرخاء والذى يحارب معها أعداءها، والذى يتقبل ـ بامتنان ـ تضحيات الأمريكيين بدمائهم. فكما يحاجج «روبرت بيله»، يبدو الدين المدنى الأمريكى موظَّفا بشكل أكثر فعالية عندما يصبو إلى «الحقيقة الدينية المتعالية (المتسامية)»، «حقيقة تتكشف من خلال تجربة الشعب الأمريكى»[٦٢]، وبوش مثله مثل الرؤساء الأمريكيين الأخيرين، غالبًا ما يعزف فى خطاباته على وتر أهمية التعالى أو التسامى فى ممارسة الأمريكى. **فإله أمريكا هو إله ينفِّذ مشيئته فى العالم فى أمريكا ومن خلالها ومن خلال قواتها المسلّحة.**

وللنظام التَّضحوى فى الدين المدنى الأمريكى ـ وما به من عبادة بطولة الفرد العسكرى ـ لهذا النظام جذور فى الفردية التَّقويّة وفى الدين الرؤيوى الذى يميز الثقافة الأمريكية منذ بدايتها المؤلمة فى ڤيرچينيا ونيو إنجلاند. فالحرية بمفهومها المُستمد من رؤيتهم لأمريكا على أنها القدس الجديدة، وهم الشعب المختار أو بنو إسرائيل الجدد، فاز بها الأمريكيون الأوروپيون على حساب حياة آخرين؛ فالتوسع فى الأراضى استلزم إبعاد «أهل البلاد ـ native Americans» والمكسيكيين، كما أن الاقتصاد الوليد للمستوطنات تطلَّب استرقاق مئات الآلاف من الأفارقة وشعوب الكاريبى للعمل فى مزارع الأرستقراطية الاستعمارية الجديدة، لقد جرى كسب الحرية إذن ـ بما فى ذلك

الحرية الدينية ـ بممارسة كثير من الظلم والعنف، وهذا شمل بالضرورة شخصنة المسيحية؛ لأنَّ الرسالة السياسية الأصلية للمسيحية ضمت ـ بوضوح ـ كل طبقات البشر؛ من العبيد إلى الأمراء فى وعدها لهم بالخلاص والحرية. بتخلل وخصخصة الأخلاقيات الروحية والاجتماعية للمسيحية، وبتحويلها من عالميتها إلى المحلية أمكن تحقيق التحالف بين الإيمان المسيحى والدين المدنى الأمريكى، ليتحول لخدمة النيوليبرالية والإمبريالية الأمريكية، وطقوس أضحياتها.

يقطع هذا التحليل شوطا فى شرح المزاوجة الغريبة بين التقوى الشخصية والعنف الإمبريالى الشرير الذى تدعمه مؤسسات الأعمال، والذى تتسم به إدارة بوش. فالقادة الدينيون الذين قابلوا بوش، وصلّوا معه فى المكتب البيضاوى، يشهدون بأنه مخلص فى معتقداته الدينية. لا شك أن بوش بدون هذا التحوّل الدينى ما كان يمكن أن يكون فى هذا المكتب البيضاوى اليوم؛ فعقيدته التى أعيد ترسيخها هى التى ساعدته على التخلى عن شرب الكحول والتخلى عن المخدرات.

يرى العلمانيون أن رياء الإيمان الخاص والفساد العام إنما يؤكد تفضيلهم للإلحاد على المسيحية، يعتقدون أن المسيحية دين شمولى، وحسنًا فعلت الحداثة إذ تخلَّصت منها، فالدين عامة، مصدر لمزيد من الحروب والعنف أكثر مما هو مصدر للتآلف والوفاق. وعلى هذا يعلن جور ڤيدال أن مشكلة بوش وتونى بلير هى أن كليهما «يحب يسوع» ويلاحظ ريتشارد دوكنز أن بوش يُعد إعلانًا جيدًا «للسكارى فى حب المسيح»[٦٣]، لكن المزاوجة بين الممارسة الدينية الشخصية والعبادة القُدسية للحرية قد زكاَّها ووثّقها العنف الإمبريالى المجذّر بشكل أعمق فى النفسية الأمريكية، مما أبدته المقتطفات التى أوردناها آنفا.

بوش هو الإثمار الأخير لتحول البروتستانتية الأمريكية إلى الممارسة الدينية بوصفها الميدان الحقيقى للروحانية الأصلية، إنه تحول ترك حقيقة العنف الذى شهدته الحرب الأهلية، والمجتمع القائم على العبودية، والاقتصاد الذى تديره المؤسسات وعبادة العلم التضحوية، لينتعش دون عائق من انتقادات نبويَّة. والقائلون برؤيوية ما قبل الألفية قدّموا رؤية للتاريخ الأمريكى وتاريخ العالم تدق الناقوس ـ بانسجام ـ مع هذا الانحراف المبنى على التحول والفردية والقدسية فى الدين الأمريكى. فعملية «الاختطاف ـ rapture» ستنتزع الأفراد من عالم يعج بالعنف والخطيئة فى أعلاه

وأسفله. فكلما زادت أعمال العنف فى المحيط الاجتماعى، زادت الحروب والشائعات التى ترعاها الحكومة الفيدرالية من خلال سياستها الخارجية، وكلما زادت التضحيات التى يقدمها الأمريكيون فى معركة النهاية، وكلما زاد هذا اقتربت اللحظة التى يتم فيها إنقاذ الفرد نهائيا من الحريق الهائل ـ حريق نهاية الزمان.

* * *

المراجع والتعليقات

المقدمة

1 Sheldon Rampton and John Stauber, *Weapons of Mass Deception: The Uses of Propaganda in Bush's War on Iraq* (London: Robinson, 2003), p. 25.
2 Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York: Simon and Schuster, 2004).
3 Stephen Mansfield, *The Faith of George W. Bush* (Lake Mary, FL: Charisma House, 2003), pp. 85 – 6 and 92 – 6.
4 Michael Moore, *Stupid White Men and Other Sorry Excuses for the State of the Nation* (New York: Regan Press, 2001).
5 Mansfield, *Faith of George W. Bush*, p. 109.
6 George W. Bush, 'Inaugural Address', 20 January, 2001.
7 Bush, 'Inaugural Address'.
8 Jacob Duche cited Cl ford Longley, *Chosen People: The Big Idea that Shaped England and A erica* (London: Hodder and Stoughton, 2002), p. 66.
9 Longley, *Chosen People*, p. 67.
10 Howard Fineman, 'Bush and God', *Newsweek*, 10 March, 2003.
11 Bush, 'Inaugural Address'.
12 Bush, 'Inaugural Address'.
13 Bush, 'State of the Union Address', 29 January, 2002.
14 George W. Bush, Address at a prayer breakfast of the National Religious Broadcasters Convention, Nashville, Tennessee, 10 February, 2003.
15 Bush, 'State of the Union', 2002.
16 الليموند فى ١١ أبريل ٢٠٠٣ ذكرت فى تقرير لها أن ضابطا بريطانيا فى القيادة المركزية بقطر قدَّر أن حوالى ٣٠٠٠ من الجيش العراقى ربما يكونون قد قُتلوا خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من القصف فى شهر مارس. وسجلت هيئة مراقبة حقوق الإنسان ـ على أساس مسح أجرته فى المستشفيات العراقية ـ ٣٠٠٠ حالة وفاة أثناء الغزو.
17 George W. Bush, 'Victory Address on the *Abraham Lincoln*', April 2003.
18 George W. Bush's remarks at Central Command headquarters, February 2003.
19 Reinhold Niebuhr, *The Irony of American History* (New York: Charles Scribner, 1955), p. 70.
20 Christopher Columbus cited Paul Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern America* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1992), p. 225.
21 Thomas Paine, *Common Sense* (Harmondsworth: Penguin, 1976), p. 120.

22 Catherine Keller, *Apocalypse Now and Then: A Feminist Guide to the End of the World* (Boston: Beacon Press, 1996), p. 8.
23 Charles Strozier, *Apocalypse: On the Psychology of Fundamentalism in America* (Boston: Beacon Press, 1994), p. 175.
24 Jack G. Shaheen, *Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People* (New York: Olive Branch Press, 2001).
25 Bush, 'Inaugural Address'.
26 John Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern* (London: Faber and Faber, 2003).

١- سفر الرؤيا الأمريكى

1 Sacvan Bercovitch, *The Rites of Assent: Transformations in the Symbolic Construction of America* (New York: Routledge, 1993), p. 147.
2 Bercovitch, *Rites of Assent*, p. 137.
3 Jonathan Edwards, *A History of the Work of Redemption* (Edinburgh: W. Gray, 1774), p. 296.
4 Ernest Lee Tuveson, *Redeemer Nation: The Idea of America's Millennial Role* (Chicago: Chicago University Press, 1968).
5 Bercovitch, *Rites of Assent*, pp. 155 – 7.
6 Bercovitch, *Rites of Assent*, p. 158, citing a sermon by the eighteenth-century preacher Jonathan Mayhew.
7 Bercovitch, *Rites of Assent*, p. 150.
8 John Quincy Adams, *An Oration Delivered on 4 July* (1837) cited Bercovitch, p. 176.
9 For an account of neoliberal economics see below chapter 3.
10 Seymour Martin Lipset, *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword* (New York: W. W. Norton and Co., 1996).
11 A. David Lindsay, *The Modern Democratic State* (London: Royal Institute of International Affairs, 1943), p. 77.
12 Jeffrey Stout, *Democracy and Tradition* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2004), p. 167.
13 Thomas J. Curry, *The First Freedoms: Church and State in America to the Passage of the First Amendment* (New York: Oxford University Press, 1986).
14 Rodney Stark and Laurence R. Iannaccone, 'A Supply Side Re-Interpretation of the "Secularisation" in Europe', *Journal for the Scientific Study of Religion*, Vol. 33 (1994), pp. 230 – 52.
15 Stanley Hauerwas, *After Christendom: How the Church is to Behave if Freedom, Justice, and a Christian Nation Are Bad Ideas* (Nashville, TN: Abingdon Press, 1991).
16 See for example Ernest R. May, *Imperial Democracy: The Emergence of America as a Great Power* (New York: Harcourt, Brace and World, 1961).
17 Andrew J. Bacevich, *The American Empire: The Realities and Consequences of U. S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002).

18 Michael Ignatieff, 'Why are we in Iraq?', *New York Times*, 7 September, 2003.
19 Anders Stephanson, *Manifest Destiny: American Expansionism and the Empire of Right* (New York: Hill and Wang, 1995), p. 5.
20 Winthrop S. Hudson, *Nationalism and Religion in America: Concepts of American Identity and Mission* (New York: Harper and Row, 1970), p. 55.
21 Ezra Stiles, 'The United States Elevated to Glory and Honour', a sermon at the anniversary election, 8 May, 1783, New Haven, excerpted in Hudson, *Nationalism and Religion*, p. 64.
22 William Ellery Channing cited Stephanson, *Manifest Destiny*, p. 49.
23 Michael Hardt and Antonio Negri, *Empire* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000).
24 On the history of the corporation in America see further David Korten, *When Corporations Rule the World* (London: Earthscan, 1995).
25 Stephanson, *Manifest Destiny*, p. 75.
26 Albert J. Beveridge, 'For the Greater Republic, Not for Imperialism: An address before the Union League Club of Philadelphia, February 15, 1899', excerpted in Hudson, *Nationalism and Religion*, pp. 117 – 8.
27 William Appleman Williams, 'American Intervention in Russia: 1917 – 1920', in David Horowitz (ed.), *Containment and Revolution* (Boston: Beacon Press, 1967).
28 Michael Ignatieff, 'The Burden', *New York Times Magazine*, 5 January, 2003.
29 Ignatieff, 'The Burden'
30 Albert K. Weinberg, *Manifest Destiny: A Study of Nationalist Expansionism in American History* (Baltimore: John Hopkins Press, 1935), pp. 63 – 4.
31 Woodrow Wilson cited Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 469.
32 Robert Jewett and John Shelton Lawrence, *Captain America and the Crusade Against Evil* (Grand Rapids, MI: Eerdmans, 2003), p. 73.
33 Wilson cited Weinberg, *Manifest Destiny*, p. 470.
34 Wilson at Oakland cited Tuveson, *Redeemer Nation*, p. 211.
35 Stephanson, *Manifest Destiny*, p. 123.
36 Mike Davis, 'Furcht vor der Fünften Kolonne' cited and trans. Ulrich Duchrow in Ulrich Duchrow and Franz J. Hinkelammert, *Property for People, Not for Profit: Alternatives to the Tyranny of Global Capital* (London: Zed Books, 2004), p. 116.
37 Stout, *Democracy and Tradition*, p. 200.
38 Steve Brouwer, Paul Gifford and Susan D. Rose, *Exporting the American Gospel: Global Christian Fundamentalism* (New York: Routledge, 1996) pp. 47 – 9.
39 Piero Gleijeses, *Shattered Hope: The Guatemalan Revolution and the United States 1944 – 1954* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992).
40 National Security Council, National Security Decision Memorandum 93, Policy Towards Chile, 9 November, 1970 archived at http://

www.lakota.clara.net/Library/nsaebb8/nsaebb8.htm.

41 Department of Defense, U.S. Milgroup, Situation Report 2, 1 October, 1973, archived at http://www.lakota.clara.net/Library/nsaebb8/nsaebb8.htm.

42 Christopher Hitchens, *The Trial of Henry Kissinger* (London: Verso, 2002).

43 Kermit Roosevelt, *Countercoup: The Struggle for Control of Iran* (London: McGraw Hill, 1970).

44 Mark Curtis, *Web of Deceit: Britain's Real Role in the World* (London: Vintage, 2003), pp. 310 – 11.

45 Annabelle Sreberny-Mohammadi, *Small Media, Big Revolution: Communication, Culture, and the Iranian Revolution* (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1994).

46 Curtis, *Web of Deceit*, p. 38.

47 Rampton and Stauber, *Weapons of Mass Deception*, p. 76.

48 'Interview with Zbigniew Brezinski', *Le Nouvel Observateur*, 15 – 21 January, 1998, p. 76.

49 Ahmed Rashid, *Taliban: Islam, Oil and the New Great Game in Central Asia* (London: I. B. Tauris, 2002), p. 18.

50 Ahmed Rashid, 'The Taliban: Exporting Extremism', *Foreign Affairs*, Vol. 78, No. 6, (November – December 1999), pp. 22 – 35.

51 John L. Esposito, *Unholy War: Terror in the Name of Islam* (Oxford and New York: Oxford University Press, 2002), pp. 10 – 11.

52 Rashid, *Taliban*, p. 211.

53 Malise Ruthven, *A Fury for God: The Islamist Attack on America* (London: Granta, 2002), pp. 134 – 5.

54 Rashid, *Taliban*, p. 211.

55 Nafees Mosaddeq Ahmed, *The War on Freedom: How and Why America was Attacked September 11, 2001* (Joshua Tree, CA: California, 2002).

56 Esposito, *Unholy War*, p. 11.

57 Robert Fisk, Interview with Osama bin Laden, *The Independent*, 6 December, 1996.

58 Osama bin Laden, 'Letter to the American People', *The Observer*, 24 November, 2002.

59 Shirley McArthur, 'A Conservative Total for US Aid to Israel: $91 Billion and Counting', *Washington Report on Middle Eastern Affairs*, pp. 15 – 16 (January – February 2001).

60 Robert Fisk, 'American Billions Keep Arabs Sweet', *The Independent*, 2 March, 2003.

61 Interview with Osama bin Laden cited Esposito, *Unholy War*, p. 24.

62 Chalmers Johnson, *Blowback: The Costs and Consequences of American Empire* (New York: Owl Books, 2003).

63 Interview with Zbigniew Brzezinski, *Le Nouvel Observateur*, 15 – 21 January, 1998, p. 76.

64 Francis Fukuyama, 'The End of History', *The National Interest*, Summer, 1989.

65 On the religious right's influence on American foreign policy see Martin

William, 'The Christian Right and American Foreign Policy', *Foreign Affairs*, Spring, 1999.

66 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, pp. 21 – 5.

67 Farhang Rajaee, 'Islam and Modernity: The Reconstruction of an Alternative Shi'ite Islamic Worldview in Iran', in Martin E. Marty and R. Scott Appleby (eds.), *Fundamentalisms Observed: Reclaiming the Sciences, the Family and Education* (Chicago: Chicago University Press, 1993), p. 103.

68 Jalal Al-e Ahmad as quoted in R. Scott Appleby, *The Ambivalence of the Sacred: Religion, Violence, and Reconciliation* (Lanham, Maryland: Rowan & Littlefield, 2000), p. 87.

69 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, p. 77.

70 Bryan S. Turner, *Orientalism, Postmodernism and Globalism* (London: Routledge, 1994), p. 87.

71 Gilles Kepel, *The Revenge of God* (Cambridge: Polity Press, 1993).

72 Sayyid Qutb, *Milestones* (Delhi: Markazi Maktaba Islami, 1981) p. 111.

73 Maududi, *al-Jihad fi sabil Allah* cited Ruthven, *Fury for God*, pp. 70 – 1.

74 Qutb, *Milestones*, pp. 50 – 1.

75 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, p. 25.

76 Stanley Hauerwas, *The Peaceable Kingdom: A Primer in Christian Ethics* (London: SCM Press, 1983), pp. 60 – 1.

77 Reinhold Niebuhr, *The Children of Light and the Children of Darkness: A Vindication of Democracy and a Critique of Its Traditional Defenders* (London: Nisbet and Co., 1945).

78 Robert Kagan, *Paradise and Power: America and Europe in the New World Order* (London: Atlantic Books, 2003), p. 100.

79 Kagan, *Paradise and Power*, p. 88.

80 *Irony of American History*, pp. 75, and 134 – 8.

81 Stanley Hauerwas, *Dispatches from the Front: Theological Engagements with the Secular* (Durham, NC: Duke University Press, 1994), pp. 101 – 5.

82 Gray, *Al-Qaeda and What It Means To Be Modern*, pp. 101 ff.

83 Norman Cohn, *The Pursuit of the Millennium: Revolutionary Millenarians and Mystical Anarchists of the Middle Ages* (revised and expanded edition, London: Temple Smith, 1970).

84 Oliver O'Donovan, *The Desire of the Nations: Rediscovering the Roots of Political Theology* (Cambridge: Cambridge University Press), pp. 152 – 4.

٢- ضيـــاع الحـــلم

1 Paul A. Baran and Paul M. Sweezy, *Monopoly Capital: An Essay on the American Economic and Social Order* (London: Monthly Review Press, 1990).

2 Robert Bellah et. al. (eds.), *Habits of the Heart: Individualism and Commitment in American Life* (Berkeley, CA: University of California Press, 1985).
3 Lindsay, *Modern Democratic State*, pp. 122 – 4.
4 On the origins of the modern American corporation see further David C. Korten, *When Corporations Rule the World* (Bloomfield, CT: Kumarian Press, 1996).
5 David H. Fischer, *Albion's Seed: Four British Folkways In America* (Oxford: Oxford University Press, 1989).
6 Fischer, *Albion's Seed*, p. 411.
7 Richard Hofstadter, *The American Political Tradition and the Men Who Made It* (London: Jonathan Cape, 1962), p. 11.
8 John Locke, *Two Treatises on Civil Government*, II, para. 32.
9 Locke, *Civil Government*, II, para. 4.
10 Locke, *Civil Government*, II, para. 6.
11 Barbara Arneil, *John Locke and America: The Defence of English Colonialism* (Oxford: Clarendon Press, 1996), p. 151.
12 See further my discussion of Aquinas' views on property in Michael S. Northcott, *The Environment and Christian Ethics* (Cambridge: Cambridge University Press, 1996).
13 Will Hutton, *The World We're In* (London: Abacus, 2003).
14 Jonathan Clark, *The Language of Liberty, 1660 – 1832: Political Discourse and Social Dynamics in the Anglo-American World* (Cambridge: Cambridge University Press 1994), pp. 38 – 9.
15 Mark Noll, *America's God: From Jonathan Edwards to Abraham Lincoln* (Oxford: Oxford University Press, 2002), p. 9.
16 Noll, *America's God*, p. 49.
17 Noll, *America's God*, p. 56.
18 Ezra Stiles, cited Noll, *America's God*, p. 64.
19 See below chapter 3 for a fuller account of civil religion in America.
20 Dietrich Bonhoeffer, 'Protestantism with Reformation' in *No Rusty Swords: Letters, Lectures and Notes from the Collected Works*, edited by Edwin H. Robertson, trans. John Bowden with Eberhard Bethge (London: Fontana, 1970), p. 100.
21 J. F. Maclear, 'The Republic and the Millennium' in Elwyn A. Smith (ed.), *The Religion of the Republic* (Philadelphia, PA: Fortress Press, 1971).
22 G. W. F. Hegel, *Lectures on the Philosophy of World-History: Introduction – Reason in History* cited Richard Rorty, *Achieving Our Country: Leftist Thought in Twentieth Century America* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1998), p. 21.
23 Rorty, *Achieving Our Country*, p. 19.
24 John Dewey, 'Creative Democracy – The Task Before Us', in *Later Works of John Dewey*, Vol. 14 cited Rorty, *Achieving Our Country*, p. 29.
25 Rorty, *Achieving Our Country*, p. 30.
26 Mark A. Noll, 'Introduction' in Mark A. Noll (ed.), *God and Mammon: Protestants, Money, and the Market, 1790 – 1860* (Oxford: Oxford University Press, 2001), p. 11.

27 Charles Sellers, *The Market Revolution: Jacksonian America 1815 – 1846* (Oxford: Oxford University Press, 1991).
28 Sellers, *The Market Revolution*, pp. 29 – 30.
29 Noll, *God and Mammon*, p. 12.
30 Maclear, 'The Republic and the Millennium', p. 201.
31 Roger Finke and Rodney Stark, 'How the Upstart Sects Won America: 1776 – 1850', *Journal for the Scientific Study of Religion*, 28 (March 1989) cited Noll, *God and Mammon*, p. 11.
32 David Paul Knord, 'Benevolent Capital: Financing Evangelical Book Publishing in Early Nineteenth-century America' in Noll (ed.), *God and Mammon*, pp. 147 – 70, and Kathryn T. Long, 'Turning ... Piety into Hard Cash: The Marketing of Nineteenth-century Revivalism' in Noll (ed.), *God and Mammon*, pp. 236 – 64.
33 Mark A. Noll, 'Protestant Reasoning about Money and the Economy, 1790 – 1860: A Preliminary Probe' in Noll (ed.), *God and Mammon*, p. 267.
34 Gordon Wood cited Noll, 'Protestant Reasoning about Money', p. 267.
35 Noll, 'Protestant Reasoning about Money', p. 269.
36 Henry Ward Beecher cited George M. Marsden, *Fundamentalism and American Culture: The Shaping of Twentieth-Century Evangelicalism: 1870 – 1925* (Oxford: Oxford University Press, 1980), p. 21.
37 Max Weber traces this alliance of piety and capitalism to the influence of Benjamin Franklin in *The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism*, trans. Talcott Parsons (London: Allen and Unwin, 1976).
38 Michael Williams, *This World is Not My Home: The Origins and Development of Dispensation ..ism* (Fearn, Rosshire: Mentor Press, 2003), p. 9.
39 J. N. Darby, *Collected Works* XI, p. 156 cited Timothy P. Weber, *Living in the Shadow of the Second Coming: American Premillennialism 1875 – 1925* (Oxford: Oxford University Press, 1979), p. 22.
40 Weber, *Living in the Shadow*, p. 42, and Williams, *This World is Not My Home*, p. 113.
41 Dwight L. Moody, *New Sermons* cited Williams, *This World is Not My Home*, pp. 41 – 2.
42 Shirley Anne Case, *The Millennial Hope* cited Weber, *Living in the Shadow*, p. 66.
43 Chafer, *Satan and the Satanic System* cited Williams, *This World is not My Home*, p. 53.
44 Charles Schofield, *What Do the Prophets Say?* cited Paul Boyer, *When Time Shall Be No More: Prophecy Belief in Modern American Culture* (Cambridge, MA: Belknap Press, 1992), p. 98.
45 R. A. Torrey, *What the Bible Teaches* cited Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 101.
46 Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 184.
47 Schofield Bible cited Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 185.
48 Theodore Herzl, *The Jewish State*, trans. Sylvie d'Avigdor (London: Nutt, 1896).

49 William E. Blackstone cited Weber, *Living in the Shadow*, pp. 138 – 9.
50 Weber, *Living in the Shadow*, p. 141.
51 Hal Lindsey, *The Late Great Planet Earth* (New York: Bantam Books, 1973), p. i.
52 Increase Mather, *The Mystery of Israel's Salvation, explained and applyed; or a discourse concerning the general conversion of the Israelitish nation, etc* (London, 1669)
53 Lindsey, *Late Great Planet Earth*, pp. 40 and 47.
54 N. T. Wright, *Jesus and the Victory of God* (Minneapolis, MN: Fortress Press, 1996).
55 Lindsey, *Late Great Planet Earth*, p. 68.
56 Lindsey, *Late Great Planet Earth*, p. 83.
57 Lindsey, *Late Great Planet Earth*, p. 101.
58 Lindsey, *Late Great Planet Earth*, pp. 152 – 7.
59 Ronald Reagan cited Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 142.
60 Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 144.
61 James Robison cited Boyer, *When Time Shall Be No More*, p. 145.
62 Keller, *Apocalypse Now and Then*, pp. 4 – 5.
63 George Monbiot, 'Apocalypse Please', *The Guardian*, 20 April, 2004.
64 Suskind, *The Price of Loyalty*.
65 These figures are derived from the World Bank's *World Development Indicators 2000* as cited Ted Honderich, *After the Terror* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2002), p. 8.
66 Molly Ivins and Lou Dubose, *Bushwhacked: Life in George W. Bush's America* (New York: Random House, 2003), p. 39.
67 Paul Krugman, 'For Richer', *New York Times Magazine*, 20 October, 2002.
68 Robert Kaplan, 'Manifest Destiny: An Interview with Robert D. Kaplan', *The Atlantic Online*, 16 September, 1998, http://www.theatlantic.com/unbound/bookauth/ba980916.htm. See also Robert D. Kaplan, *An Empire Wilderness: Travels Into America's Future* (New York: Random House, 1998).
69 Honderich, *After the Terror*.
70 Figures from the *Federal Reserve Bulletin* cited Ivins and Dubose, *Bushwhacked*, p. 44.
71 Honderich, *After the Terror*, p. 108.
72 'The Christian World View of Economics', Coalition for Revival cited Laurence Iannaccone, 'Fundamentalism and Economics in the US' at http://www.gordon.edu/ace/pdf/Iannaccone_Fundamentalism.pdf.
73 Ivins and Dubose, *Bushwhacked*, p. 13.

٣- الإمبراطورية تكشف عن وجهها

1 Wes Howard Brook and Anthony Gwyther, *Unveiling Empire: Reading Revelation Then and Now* (Maryknoll, NY: Orbis Books, 1999).

2 Christopher Rowland, *The Open Heaven: A Study of Apocalyptic in Judaism and Early Christianity* (London: SPCK, 1982), p. 9.
3 C. K. Barrett, 'New Testament Eschatology' cited Rowland, *Open Heaven*, pp. 2 – 3.
4 Christopher Rowland, *The Open Heaven: A Study of Apocalyptic in Judaism and Early Christianity* (London: SPCK, 1982).
5 Richard Baukham, *The Climax of Prophecy: Studies in the Book of Revelation* (Edinburgh: T. and T. Clark, 1993).
6 Christopher Rowland, *Revelation* (London: Epworth, 1993), p. 3.
7 I owe this way of putting things to my friend Wilf Wild, who pointed out the link between veiling and ideology in a personal communication.
8 Andrew J. Bacevich, *The American Empire: The Realities and Consequences of U. S. Diplomacy* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002), p. 30.
9 Bacevich, *American Empire*, p. 30.
10 Arthur M. Schlesinger Jr, *The Cycles of American History* cited Bacevich, *American Empire*, p. 30.
11 Bacevich, *American Empire*, p. 31.
12 Casper Weinberger cited Alex Callinicos, *The New Mandarins of American Power* (Cambridge: Polity Press, 2003), p. 64.
13 Madeleine Albright cited Callinicos, *The New Mandarins*, p. 64.
14 Patrick E. Tyler cited Bacevich, *American Empire*, p. 44.
15 Project for the New American Century, *Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces and Resources for a New Century* (Washington, DC: PNAC, 2000), p. 1.
16 On the American war in Columbia see Noam Chomsky, *Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominance* (London: Hamish Hamilton, 2003), pp. 52 – 4.
17 PNAC, *Rebuilding America's Defenses*, p. v.
18 Robert Fisk, 'This looming war isn't about chemical warheads or human rights: it's about oil', *The Independent*, 18 January, 2003.
19 PNAC, *Rebuilding America's Defenses*, p. 4.
20 *The National Security Strategy of the United States of America*, foreword by George W. Bush, The Whitehouse, Washington DC, September 2002.
21 Bacevich, *American Empire*, pp. 38 – 40.
22 Newt Gingrich cited Bacevich, *American Empire*, p. 39.
23 Joseph S. Nye, *The Paradox of American Power: Why the World's Only Superpower Cannot Go It Alone* (New York: Oxford University Press, 2002), pp. 78 – 81.
24 George W. Bush, 'Address of the President to the Joint Session of Congress', Washington DC, 27 February, 2001.
25 For a full list of the hundreds of American military operations since the end of the Cold War, see Vidal's essay 'Black Tuesday' in Gore Vidal, *The Last Empire: Essays 1992 – 2001* (London: Abacus, 2002), pp. 303 – 24.
26 Bacevich, *American Empire*, pp. 230, 232.
27 Immanuel Kant, *Perpetual Peace: A Philosophical Sketch, 1795*, trans. Frieden Zumewigen (London: Allen and Unwin, 1915).

28 George W. Bush, 'Remarks by the President at the Citadel', cited Bacevich, *American Empire*, p. 238.
29 Friedrich A. Hayek, *The Road to Serfdom* (New York: George Routledge and Sons, 1944).
30 Hayek, *The Road to Serfdom*, p. 19.
31 Leo Strauss, *Liberalism Ancient and Modern* (Chicago, IL: University of Chicago Press, 1995).
32 Charles Murray used Edmund Burke's phrase 'small platoon' in a plenary address on the neoconservative economic and political vision which he gave at the annual meeting of the Societas Ethica in Sigtuna, Sweden on 2 September, 2003.
33 Bush, 'Inaugural Address'.
34 'George W. Bush and the Real State of the Union', *The Independent*, 20 January, 2004, p. 1.
35 Richard Stivers, *The Culture of Cynicism: American Morality in Decline* (Oxford: Blackwell, 1994).
36 James F. Petras and Henry Veltmeyer, *Globalization Unmasked: Imperialism in the 21st Century* (Halifax, Nova Scotia: Fernwood, 2001).
37 Joseph Stiglitz clearly identifies the American-based International Monetary Fund, and other American banks, economists and corporations as those principally responsible for the economic collapse of Argentina in his *Globalization and its Discontents* (London: Allen Lane, 2002), pp. 68 – 70.
38 UNICEF, *The Progress of Nations*, cited Noam Chomski, *Rogue States: The Rule of Force in World Affairs* (London: Pluto Press, 2000), p. 136.
39 Richard Land, 'Talking the Talk: Responses', in Michael Cromartie and Irving Kristol (eds.), *Disciples and Democracy: Religious Conservatives and the Future of American Politics* (Washington: Ethics and Public Policy Center and Grand Rapids, MI: Eerdmans, 1994), pp. 99 – 104 (102).
40 Land, 'Talking the Talk', pp. 102 – 3.
41 Stiglitz, *Globalization and its Discontents*.
42 Helen Caldicott, *The New Nuclear Danger: George W. Bush's Military-Industrial Complex* (New York: The New Press, 2002).
43 Zbigniew Brzezinski, *The Grand Chessboard: American Primacy and its Geostrategic Imperatives* (New York: Basic Books, 1997).
44 Joseph Schumpeter, *Imperialism and Social Classes* trans. Heinz Norden (Oxford: Basil Blackwell, 1951).
45 Nafeez Mosaddeq Ahmed, *The War on Freedom: How and Why America was Attacked on September 11, 2001* (Joshua Tree, CA: Tree of Life Publ., 2002), p. 88.
46 *Newsweek*, 24 September, 2001.
47 Andrew J. Bacevich, 'New Rome, New Jerusalem', in Andrew J. Bacevich (ed.), *The Imperial Tense: Prospects and Problems of American Empire* (Chicago: Ivan R. Dee Publ., 2003), p. 97.
48 Jean-Jacques Rousseau, *The Social Contract*, trans. Maurice Cranston (London: Penguin, 1968).
49 Robert Bellah, 'Civil Religion in America', *Daedalus*, 96, 1 (Winter 1967), pp. 1 – 21.

50 Carolyn Marvin and David W. Ingle, *Blood Sacrifice and the Nation: Totem Rituals and the American Flag* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), pp. 1 – 2.
51 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 3.
52 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 3.
53 René Girard, *The Scapegoat*, trans. Yvonne Freccero (London: Athlone Press, 1986), pp. 40 – 2.
54 René Girard, *Things Hidden from the Foundation of the World*, trans. Stephen Bann and Michael Metteer (London: Athlone Press, 1987), p. 136.
55 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 10.
56 Marvin and Ingle, *Blood Sacrifice*, p. 89.
57 See further Jolyon P. Mitchell, *The Media and Christian Ethics* (Cambridge: Cambridge University Press, forthcoming).
58 William James, *The Varieties of Religious Experience* (London: Longman, Green and Co., 1902), p. 34.
59 On the rise of the megachurch see further Kimon Howland Sargeant, *Seeker Churches: Promoting Traditional Religion in a Nontraditional Way* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2000).
60 President George W. Bush's address at the Washington National Cathedral Prayer Service, 14 September, 2001.
61 Timothy LaHaye, *The Battle for the World* (New Jersey: Revell, 1980), p. 35.
62 Bellah, 'Civil Religion in America'.
63 Gore Vidal in an interview with columnist Liz Smith, *New York Post*, April 4, 2003, ' Richard Dawkins,'Letter to the President', *The Guardian*, 19 October, 2003.